

# الى اجبات الاجتباعية

## الجماعة والتفرقة

لكل واحد من البشر ثلاثة بيوت أو ثلاث عائلات :

( عائلة صغرى ) وهى المؤلفة من أهله وعباله

و (عائلة وسطى) وهى المؤلفة من اخوته في الدين أو الوطن .

و (عائلة كبرى) وهى المؤلفة من إخوته في الانسانية . وقد أتمنا

الكلام في الفصول السابقة على العائلة الصغرى وما يجب لها فلننتقل الى الكلام

على ( العائلة الوسطى) أو ( العائلة الوطنية ) وذكر الواجبات المطالب بها كلُّ

واحد من أبنائها نحوها . وهذه العائلة أيضاً قلما يتفق أن تكون مركبة من

طائفة واحدة ذات ملة واحدة . وإنما هى في الغالب مؤلفة من عائلات أو

طوائف متعددة . ذات مِلل وأديان مختلفة . ولكن هذا لا يمنع أن تسمى تلك

الطوائف أمةً واحدةً أو عائلة واحدة مادام وطنهم واحداً ، ولغتهم واحدة ،

ومصالحهم السياسية والاقتصادية واحدة . فهما فرق الدينُ والمذهبُ بينهم فإن

الوحدَات الأخرى تجمعهم ، واتَّصمَّت شتاتهم . فما نذكره في الفصول التالية من

أنَّ الإنسان مكلف بواجبات اجتماعية تجاه غيره لا نريد بذلك الغير أبناء دينه

والمشاركين له في معتقده فقط ، وإنما نريد كل مشاركيه في الوطن ومصالحه

السياسية والاقتصادية من أيَّة ملة كانوا .

والاسلام دين خاصٌ بالمسلمين من حيث العقائد والعشائر وطرقُ التعبُد

أما من حيث أحكامه السياسية والادارية والمدنية وتعاليمه الاجتماعية والاخلاقية

والأديبة فهو دينٌ عامٌ يقبل أن يدخل تحت أوامره ونواهيه المذكورة أبناء ملتته وسائر أبناء الطوائف الأخرى المختلطين بهم، والمشاركين لهم في وطنيتهم، فهو إذا أمرَ بوجوب الوفاق والتحاب والامانة والعدل والرحمة والصدقة وفعل الخير وترك الحسد والتجسس وسائر الواجبات الاجتماعية - لا يريد بذلك أتباعه المسلمين وحدهم لأن المسألة ليست مسألة صلاةٍ وتيممٍ واستقبال قبة ، ولا صوم واعتكاف وطواف حول الكعبة . وإنما هو يريد ( أى الاسلام ) المسلمين ومن التفت بهم عهداً ووطناً وحكومةً ومصالحةً : فمن أولى تلك الواجبات الاجتماعية التي أمرَ بها الإسلامُ ( الجماعة والتفرقة ) أى وجوب الاندماج في الجماعة الكبرى وتجنب الاقتراق عنها . فاذا كانت القرائن تدل على أن الخطاب متعلقٌ بترك التفرقة في العقائد والشعائر كان المخاطبون فيه جماعة المسلمين . وإن كان الخطاب متعلقاً بمصالح الوطن السياسية والأدارية والاجتماعية والاقتصادية كان المخاطبون المسلمين وإخوانهم من أبناء الملل الأخرى المشاركين لهم في تلك المصالح والمرافق . ومن هذا القبيل قوله صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ الجماعة رَحمةٌ ، والتفرقة عَذابٌ ﴾

أي اجتماع المسلمين على عقائد دينهم رحمةٌ وتفرقتهم شيئاً فيها عذاب . أو المعنى أن اجتماع المسلمين ومن شاركهم في المصالح الوطنية على حفظ هذه المصالح رحمةٌ وتفرقتهم فيها أحزاباً عذاب . ومثل هذا الحديث أحاديثٌ أخر : منها قوله صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ مَنْ فَرَّقَ فَلَيْدَسَ مِنَّا ﴾

﴿ يَدُ اللَّهِ عَلَى الْجَمَاعَةِ ، وَإِنَّمَا يَأْكُلُ الذُّبُّ مِنَ النَّعْمِ الْقَائِمَةِ ﴾

( يد الله ) أي نعمته تعالى وبركته على أبناء الوطن الواحد إذا كانوا جماعةً واحدةً متضامنه على حفظ الحوزه ، وصيانة المصلحة - أو على أبناء الدين

الواحد اذا كانوا جماعة واحدة في الوحدة المذهبية لا تفرّق فيهم ولا اتقسام .  
 ثم قال انّ الذي ينفرد عن الجماعة - هذه أو تلك - يُصبح كالشاةِ القاصية .  
 ( أي البعيدة ) عن جماعة القطيع لا تلبثُ أن يأكلها الذئب . وقال صلى الله  
 عليه وآله وسلم :

﴿ لا تَخْتَلِفُوا : فَإِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ اخْتَلَفُوا فَهَلَكُوا ﴾

يُحيلنا الشارع على أمم التاريخ التي كانت قبلنا وقد اختلفت وتفرقت كلماتها  
 فهلكت وبادت وأدليل منها نعتبر بها ، ونزدجر عن مثل نعلها . وقال صلى  
 الله عليه وآله وسلم :

﴿ اثْنانِ خَيْرٌ مِنْ واحدٍ ، وثلاثةٌ خَيْرٌ مِنْ اثنين ، وأربعةٌ خَيْرٌ مِنْ

ثلاثة . فعليكم بالجماعة : فَإِنَّ اللَّهَ لَنْ يَجْمَعَ أُمَّتِي إِلَّا عَلَى هُدًى ﴾

هذه الأحاديث تُرشد الى أن استقرار الحق والصواب يكون في الفئة التي  
 زاد عددها على اختمها ولو بواحد . ويُشبه أن يكون قد استرشد بهذه الأحاديث  
 الأمم المتمدنة : فانهم في مجالسهم البرلمانية يرون وجوب العمل بقول الفريق  
 الذي يزيد عدده على عدد الفريق الآخر ولو بصوت واحد - على أن هذه  
 الاحاديث التي تعتبر الحق في جانب الكثرة إنما تعتمد الاعم الأغلب  
 من جهة كما أنها من جهة ثانية تُراعي حال من لم يقدر على تمييز الحق من الباطل  
 بنفسه فمثلُ هذا ينبغي له أن ينضم الى السواد الأعظم . ويُغلب الثقة به . أما  
 اذا كان للمرء فكرٌ ناقب وقلبٌ مخلص خالٍ من الشوائب ، ورأى الحق في  
 جانب الاقلية فلا عليه أن ينضم اليها ويُعول في الامر عليها . وينافح بكل قوته  
 دونها حتى يهلك من هلك عن بينة ، ويحيى من حي عن بينة . وقوله صلى الله  
 عليه وآله وسلم :

﴿ لا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ حَتَّى

يَأْتِي أَمْرُ اللَّهِ ﷻ

يؤيد ما قلنا من أن الاقلية يكون في جانبها الحق أحياناً  
وقال صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ الْمُؤْمِنُونَ كَرَجُلٍ وَاحِدٍ : إِنْ اشْتَكَى رَأْسَهُ اشْتَكَى كُلَّهُ ، وَإِنْ اشْتَكَى عَيْنَهُ اشْتَكَى كُلَّهُ ﴾

يعنى أنهم من شدة التحامهم وقوة تضامنهم يُصبح كل واحدٍ منهم بالنسبة الى مجموعهم ككل عضو بالنسبة الى مجموع الجسد : فإذا نزل بواحدٍ منهم مكروهٌ شعَرَ به كلهم على السواء وعملوا جميعاً على إزالته . كما يُسرع الجسد كله الى إزالة ما ينزل بأحد أعضائه من وجع أو ألم

ومن آيات القرآن في الحُضِّ على الوحدةِ قوله تعالى :

﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ﴾

﴿ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ﴾

( رِيحُكُمْ ) قوتكم ووصولكم : ولا ريب أن اتحاد أبناء الأمة واتفاق كلمتهم من أكبر العوامل في ثبات أمرهم . وبقاء دولتهم . والشواهد على ذلك لا يحصىها العدد . والامم التي ذهب تفرق الكلمة بعزها وسلطانها قريبة تكاد تلمس باليد . ومن أقوال الأقدمين « كلُّ بيتٍ ينقسم على نفسه يخرَّب » وكما حضَّ الشرع الاسلامي على اتفاق الكلمة أرشد الى رأب الصدع وإصلاح ذات البين اذا اعترى الروابط القومية وهنَّ أو ضعف . من ذلك قوله صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ أَفْضَلُ الصَّدَقَةِ إِصْلَاحُ ذَاتِ الْبَيْنِ . ﴾

﴿ مَا عَمِلَ ابْنُ آدَمَ شَيْئًا أَفْضَلَ مِنْ إِصْلَاحِ ذَاتِ الْبَيْنِ ﴾

وكان المسلمون في سالف عهدهم يتأدَّبون بأدب القرآن في توحيد كلمتهم .

وطاعة أميرهم حتى رَوَى الحَسَنُ البَصْرِيُّ أَنَّ الرَّجُلَ مِنْهُمْ كَانَ إِذَا عَرَضَتْ لَهُ حَاجَةٌ وَأَمِيرُهُ يَخْطُبُ لَمْ يَذْهَبْ مِنْ دُونِ أَنْ يَسْتَأْذِنَهُ : فَيَقُومُ وَيَمْسِكُ بِأَنْفِهِ مَشِيرًا إِلَى أَنَّهُ أَصَابَهُ رُعَافٌ وَيُرِيدُ الْوَضُوءَ فَيُشِيرُ إِلَيْهِ أَمِيرُهُ بِالْخُرُوجِ وَإِذَا كَانَ يَخْرُجُ . وَعَمَلُهُمْ هَذَا تَأْدِيبٌ بِقَوْلِهِ تَعَالَى :

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ ﴾

( أمر جامع ) أي شأن من الشؤون الجامعة العامة كحربٍ حضرت ، أو خطبة تليت ، أو مشورة اديرت . قال الحسنُ : فاتفق أن رجلاً ملَّ الحرب والاعترابَ عن أهله فأحبَّ الرجوعَ إليهم . فقام إلى أميره ( هرم بن حيان ) وهو يخطب ، فأخذ بأنفه حسب العادة مستأذناً بالانصراف فأذن له . فانصرف ولكن إلى بلده وعشيرته . فأقام فيهم أياماً ثم رجع فسأله أميره :

— أين كنت ؟ ؟

— في أهلي .

— أباذنٍ ذهبت ؟ ؟

— نعم : قمتُ إليك وأنتَ تخطبُ فأخذتُ بأنفي فأشرتَ إليَّ أن

اذهب . فذهبت .

— أفأخذتَ هذا دَغلاً وخديعةً ؟ اللهم أخرجْ رجالَ السوءِ إلى زمنِ السوءِ

رَأَى ( هرم ) أَنَّ زَمَنَهُمْ لَيْسَ زَمَنٌ سَوْءٌ وَأَنَّ مَا عَمِلَهُ هَذَا الْجُنْدِيُّ مِنْ

مُخَادَعَةِ أَمِيرِهِ لَا يَنْبَغِي أَنْ يَقَعَ فِي ذَلِكَ الزَّمَنِ . فَدَعَا اللَّهَ أَنْ يُؤَخِّرَهُ هُوَ وَأَمْثَالَهُ

الْمُخَادَعِينَ إِلَى أَرْزَامِ السُّوءِ الْآتِيَةِ .

ومحصل القول أن من الواجبات الاجتماعية على كل واحد من أبناء الأمة

أن يتمسك بعُرى الوحدة الوطنية فلا يَفْصِمُهَا . ويحافظ على كعبة استقلال قومه

فلا يهدمها. ويعمل جهده على إصلاح ذات البين . كيلا يؤدي بهم النزاع الى  
 البلاء والحين ووطن كوطننا مؤلف من جماعات وممل مختلفة لا يمكن  
 نهوضه ونجاحه مالم تتفق طوائفه . ولا يتفقون مالم تكن كل طائفة منهم متفقة  
 في نفسها . غير منقسمة على ذاتها . واذا وقع شقاق أو نزاع في طائفة من  
 طوائف الوطن لا تضر نفسها فقط بل يتعدى أثره الى أخواتها ثم الى الوطن نفسه  
 والى مجموع مصالحه : فكان من الخير للطوائف الذين يتألف منهم الوطن الواحد  
 أن يحرصوا على توثيق روابط الألفة بينهم من طريق توثيقها بين أبناء كل طائفة  
 منهم . وان النصوص الاسلامية الآمرة بالاتفاق ، الناهية عن الاقتراق ، لا تؤثر  
 أثرها المطلوب مالم يوجه فيها الخطاب الى مجموع أبناء الوطن : مسلمين وغير  
 مسلمين ، فان في اتفاهم وجمع كلمتهم الخير لهم أجمعين

## التعاون والتحاب

بحث ( الجماعة والتفرقة ) السابق منظور فيه الى تعاون الامة من حيث  
 إن فيها طوائف مذهبية وأحزاباً سياسية يخشى أن يؤدي النطاح بينها  
 والنزاع في مصالحها العامة الى اضطراب الأمر ، وانتكاث القتل ، وذهاب  
 الملك جملة واحدة . اما بحث ( التعاون والتحاب ) هذا فنظور فيه الى تعاون  
 الامة باعتبار كل فرد من أفرادها إزاء قريبه وجاره وصديقه ومعامله : فيخلص  
 في حبه ، ويحرص على نفعه ، ويمد إليه يد المعونة في حين ضائقته ونكبته .  
 فيعيشون متوادين متحابين وعلى البر والعمل الصالح متساندين متعاونين . وقد  
 عاب القرآن قوماً من الأشرار يمنعون الناس رفقهم ومعوتتهم فقال تعالى :

﴿ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴾

( الماعون ) مشتق من المعونة . فالمعنى أنهم اذا سُئلوا أي ضرب من

خروب التعاون والمساعدة أبوا وامتنعوا . وخصَّ بعضُ العلماء (الماعون) بما يعارُ عادةً من أمتعة البيت ومراقفه كالقِدر ونصوصُ الشريعة الواردة في معنى (التعاون والتحاب) عامة شاملة لكل واحد من أبناء الأمة على اختلاف مذاهبهم وأديانهم ما دامت مصالحهم مشتركة ، ومراميتهم متّحدة . والإسلامُ بطبيعته يحرّصُ على هذه المصالح والمقاصد . وهو يأمر بالتحاب والتعاون بين جميع المواطنين المشتركين فيها . كيلا يؤدي تواكلهم وتباغضهم الى ضياعها وفسادها . أو الى النكد الدائم ، والشقاء الملازم . أمّا تخصيصُ المسلمين او المؤمنين أحياناً بالذكر في بعض النصوص فلا أنهم كانوا المخاطبين بهذه النصوص حين ورودها أو لأنهم أربابُ الواقعة التي وردَ النص بشأنها . فلا يُفهم منه أن غيرهم من أبناء الملل الأخرى غير داخلين في عموم حكمها المتعلّق بالمصالح الصامة ، والمنافع المشتركة . فمثال النص المطلق العام قوله صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ الخلق كلهم عيالُ الله وأحبُّهم إلى الله أنفعُهُم لعياله ﴾

فهل يريد الشارع بالعيال المسلمين وحدهم بعد قوله (الخلق كلهم) الصريح في أن مراده كلُّ فردٍ من بني آدم بل كل فردٍ منهم ومن العجماءات أيضاً : فإنها مخلوقة له تعالى يأمرُ الشارع بالرفق بها كما سيأتي في بابها الخاص : فالاسلام إذاً يحضُّ كلَّ فردٍ من الخلق على كل فردٍ من الخلق . وقرّر أن منزلة المرء من ربه تكون على مقدار ما يُوصل من النفع والخير الى البشر . وفي معنى هذا الحديث أحاديث أخرى . منها قوله صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ خيرُ الناس أنفعُهُم للناس ﴾

﴿ رأسُ العقل بعدَ الإيمان بالله التحبُّ الى الناس ، واصطناعُ الخير

الى كلِّ برٍّ وفاجر ﴾

ومن كلام أمير المؤمنين في هذا المعنى : « قلوبُ الرِّجالِ وَحْشِيَّةٌ فمن تألَّفها أقبلت عليه » وقال أيضاً : « البشاشةُ جِبالُ المودَّةِ والاحتمالُ قِبرُ العيوبِ » وقال : « أعجزُ الناسِ من أعجزَ عن اكتسابِ الإِخوانِ . وأعجزُ منه بمن ضيَّعَ من ظفِرِ به منهم » وقال صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ لا تباغضوا ولا تَدَابَرُوا ولا تَنافَسُوا وكونوا عِبَادَ اللَّهِ إخواناً ﴾

﴿ مَنْ عَمِلَ النَّاسَ : فلم يظالمهم ، وحدثهم : فلم يَكذِبهم ، ووعدهم : فلم يخلفهم ، فهو ممن كُلمتْ مروءته ، وظهرتْ عدالته ، ووَجِبَتْ أخوته ﴾

﴿ الإنسانُ أخو الإنسانِ أحبُّ أم كره ﴾

ومثَّلَ بعضُ الحكماءِ لذلك فقال : أمسى عليَّ المساءُ في الصحراءِ فلاح عليَّ من بُعدٍ شبحٌ أسودٌ عليَّ رأسِ رايةٍ فدُعِرْتُ منه ، ولما أقبلتُ نحوه وجدتُهُ إنساناً ، ولما صرتُ بجانبه وجدتهُ أخي ، وهكذا البشرُ يتعجَّلون في بغضِ بعضهم بعضاً وهم لو فكروا لعلموا أنهم إخوة يستحقُّون التحابُّ بدل التباغضِ . والتصافي مكان التحاقدِ .

رويدكمو ، فالدهرُ فيه كفايةٌ لتفريقِ ذاتِ البينِ فانتظروا الدهرأ

أما الأحاديثُ التي خصَّتْ المسلمين بالذِّكرِ للاعتبارِ الذي ذكرناه آنفاً

فمثلُ قوله صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ اعزُّوا الأذى عن طريقِ المسلمين ﴾

﴿ أفضلُ الأعمالِ أنْ تدخلَ على أخيك المؤمنِ سروراً أو تقضي عنه ديناً ﴾

ولا دليل في الشرع الإسلاميّ ينهى عن معاملة غير المسلمين بغير ما ذكر من مكارم الأخلاق بعد قوله صلى الله عليه وآله وسلم في الحديث السابق ﴿ الخلقُ

كلهم عيالُ الله وأحبُّهم إلى الله أنفعهم لعياله ﴾ وبعد قوله :

﴿ لا ضررَ ولا ضرارَ في الإسلام ﴾

﴿المؤمنُ آلفٌ مألوفٌ . ولا خيرَ فيمن لا يألفُ ولا يُؤلفُ﴾  
 وبالجملة فالمسلمُ باعتبار الدين الاسلامي هو من كان مثال الكمال الانساني  
 في حبه لغيره من بنى البشر . والمسارة الى معوته ونفعه . وكفَّ اذاه عنه .  
 وتحمل الأذى منه . ومسامحته على اذاه . بل مقابلته عليه بالبر والاحسان كما  
 قال تعالى في صفة الأبرار :

﴿ويدرءونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾

كما قال صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿أفضلُ الفضائلِ : أنْ تصلَ من قطعَكَ . وتعطيَ من حرَمَكَ . وتصفحَ

عَمَّنْ ظَلَمَكَ﴾

وإن قيام المسلم بهذا الواجب نحو أبناء نوعه هو في الوقت نفسه من جملة  
 قيامه بالواجب نحو خالقه تعالى . والاسلام لا يسمح للمسلم أن يقف موقف  
 صولة أو خصومةٍ بحالٍ من الأحوال ما لم تتعرض حقوق بنى الانسان للضياع أو  
 يلحق المصالح العامة أو الخاصة غنً أو فساداً فإنه إذ ذاك يسمح بالمقاومة ضمن شرائط  
 العدل والاعتدال . ومن تتبع الأحاديث الواردة عن الشارع بشأن حبِّ الغير  
 وايصال الخير اليه وجدها تربو على النصوص الواردة بشأن الواجبات الاجتماعية  
 الأخرى . وإن مجرد سردها هنا يستوعب عدة صفحاتٍ . فلذلك تقتصر على  
 ما هو آت :

﴿ما تحبُّ اثنانِ في الله إلا كان أحبُّهما الى الله أشدَّهما حبًّا لصاحبه﴾

﴿إصنع المعروف الى من هو أهله . وإلى غير أهله : فإن أصبتَ أهله أصبتَ

أهله . وإن لم تُصبِ أهله كنتَ أنتَ أهله﴾

﴿إنَّ الله أمرني بمدارة الناسِ كما أمرني باقامة الفرائض﴾

ويعنى بمدارة الناسِ التحبُّب اليهم . والمسارة الى فعل ما يرضيهم من دون

مَا ذَلِيلَةٌ وَلَا مَعْصِيَةٌ :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُبْغِضُ الْمُعْبِثَ فِي وُجُوهِ إِخْوَانِهِ ﴾

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ إِغَاثَةَ اللَّهْفَانِ ﴾

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُدَاوِمَةَ عَلَى الْإِخَاءِ الْقَدِيمِ . فِدَاوِمُوا عَلَيْهِ ﴾

﴿ بَلُّوا أَرْحَامَكُمْ وَلَوْ بِالسَّلَامِ ﴾

( الأرحامُ ) صلاتُ القُرْبِيِّ وَأَوَاصِرُ النَّسَبِ . يقولُ تَعَهَّدُوا ذَوِي قُرْبَاكُمْ

بِالْبُرِّ وَصَنُوفِ الْإِحْسَانِ وَإِذَا عَجَزْتُمْ عَنْ ذَلِكَ فَلَا تَعْجِزُونَ عَنْ كَلِمَةِ سَلَامٍ

وَتَرْحِيبِ تَوَجُّهُنَّهَا إِلَيْهِمْ . فَتُسْنَعُونَ الْقَرَابَةَ بَعْدَ الْخُودِ . وَتَرْطِبُونَهَا بَعْدَ الْجَفَافِ

وَالْجُمُودِ . وَاسْتَعْمَالِ ( الْبَلِّ ) هُنَا مِنْ أَجْلِ الْإِسْتِعَارَاتِ وَأَبْدَعِهَا . وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ

عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ :

﴿ تَعَاَفَوْا تَسْقُطِ الضَّغَائِنُ مِنْ قُلُوبِكُمْ ﴾

( تَعَاَفَوْا ) مِنَ الْعَفْوِ أَيْ سَارِعُوا إِلَى أَنْ يَعْفُوَ بَعْضُكُمْ عَنْ إِسَاءَةِ بَعْضٍ :

فَإِنَّ ذَلِكَ يُسَاعِدُ عَلَى مَحْوِ الْأَحْقَادِ مِنْ صَدُورِكُمْ . وَقَالَ أَيْضًا :

﴿ لَا يُؤْمِنُ أَحَدٌ كَمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ ﴾

﴿ لَا تَدْخُلُوا (١) الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا . وَلَا تُؤْمِنُوا (١) حَتَّى تَحَابُّوا ﴾

﴿ لِأَنَّ أَعْيْنَ أَخِي الْمُؤْمِنِ عَلَى حَاجَتِهِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ صِيَامِ شَهْرٍ

وَاعْتِكَافِهِ ﴾

﴿ مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادُّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاظِفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ : إِذَا اشْتَكَى

مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهْرِ وَالْحُمَّى ﴾

﴿ الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ الْمَرْصُوعِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا ﴾

(١) حذف النون من ( لا تدخلوا ) ولا ( تؤمنوا ) اندير ناصب ولا جازم تخفيفا على حد

( كما تكونوا يولى هليكم )

﴿ مِنْ أَفْضَلِ الْعَمَلِ إِدْخَالُ الشُّرُورِ عَلَى الْمُؤْمِنِ : تَقْضِي عَنْهُ دَيْنًا ، تَقْضِي لَهُ حَاجَةً ، تُنْفَسُ عَنْهُ كُرْبَةً ﴾

﴿ مَنْ أَصْبَحَ لَا يَهْتَمُّ بِالْمُسْلِمِينَ فَلَيْسَ مِنْهُمْ ﴾

تزيد هنا في بيان السبب في تخصيص المسلمين بالذكر أن الزمن الذي قيلت فيه هذه الأحاديث الشريفة كان المسلمون فيه فئة قليلة حديثة النشأة جديدة الاطوار . غريبة في العالم . يُحيط بها الأعداءُ من كل جانب . لاجرم أنه لا ينحيمهم ويضمن سلامتهم سوى العمل بارشاد هذه الأحاديث . وهذا ناموس اجتماعي تضطر الى العمل به كل فئة حديثة النشأة جاءت من التعاليم الدينية بما ينكره المطيفون بها . وقال صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ مَنْ أَرَادَ أَنْ تَجَابَ دَعْوَتُهُ وَتُكْشَفَ كُرْبَتُهُ فَلْيُفْرَجْ عَنِ الْمُعْسِرِ ﴾

( الْمُعْسِرُ ) المصاب بعسرٍ وضيق . وغلب استعماله فيمن ضاقت ذات يده

عن وفاء ديونه وقضاء حاجات معيشته

﴿ إِنْ أَحَبَّكُمْ إِلَى اللَّهِ الَّذِينَ يَأْتُونَ وَيُؤْتُونَ . وَإِنْ أَبْغَضَكُمْ إِلَى اللَّهِ

السَّائِئُونَ بِالنِّمَةِ ، الْمَفْرُقُونَ بَيْنَ الْإِخْوَانِ ﴾

لاجرم أنه بقدر ما يكون لتوثيق علائق التحاب بين الناس في نظر الشارع من الشأن والاعتبار يكون للمجتريء على تقطيعها من المقت والاستنكار . والكلمة الجامعة في الحض على التعاون والتساند هذه الآية الكريمة :

﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى ، وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ﴾

ومثلها في الحض على مبادلة عواطف الحب والتوصل اليه من أسهل طرقه

قوله تعالى :

﴿ وَإِذَا حُجِّمْتُمْ بِنَجِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا ﴾

الأفضل أن تقابل صديقك من وسائل الألفة ودواعي التحاب بأحسن

مما قَابَلَكَ به . فان لم تفعل كان عليك أن تقابله بمثله على الأقل . ومما روي  
عن عرب الجاهلية في التعاون ومساعدة الغير قول حاتم الطائي :

( إِذَا كُنْتَ رَبًّا لِلْقَلُوصِ فَلَا تَدَعِ

رَفِيقَكَ مَشِي خَلْفَهَا غَيْرَ رَاكِبِ )

( أَنْخَمَا فَأَرْكَبَهُ : فَإِنْ حَمَلْتَكُمَا

فَذَاكَ ، وَإِنْ كَانَ الْعِقَابُ فَعَاقِبِ )

أي وإن لم تحملكما معاً وكان اللازم أن تتعاقباها أي تتناوبا الركوبَ عليها  
فتركبا أنت مرة وهو مرة - فافعلوا .

وأفضل من هذا ما رواه البيهقي قال : شتم رجل ابن عباس فأجابه :  
أتشتمني وفي ثلاث خصال : إني لأسمعُ بالحمام يعدلُ في حكمه فأحبهُ ، ولعلي  
لا أقاضي إليه أبداً . وإني لأسمعُ بالغيث يُصيبُ البلدَ فأفرحُ به . ومالي به  
سائمةٌ ولا راعية . وإني لآتي على آيةٍ من كتاب الله فأودُّ أن المسلمين كلهم  
يعلمون منها مثل ما أعلم»

وقد أخذ أبو العلاء المعري المعنى الثاني من معاني ابن عباس فنظمه  
شعراً فقال :

( وَلَوْ أَنِّي أُحِبُّتُ الْخُلْدَ فَرَدًّا

لَمَا أُحِبُّتُ بِالْخُلْدِ أَنْفِرَادًا )

( فَلَا هَطَلَتْ عَلَيَّ وَلَا بَارِضِي

سَحَابٌ لَيْسَ تَنْتَظِمُ الْبِلَادَا )

وليس من علامات التحابِّ والتعاون بين الإخوان أن يرى أحدهم  
صديقه مقيماً على الشرِّ والمنكر وفعل السوء فيتَّحَبَّبَ إليه بالسكوت عنه ،  
والإغضاء عليه أو استحسان ما فعل أحياناً . فإنَّ هذا النوع من المجاملة والتَّحَبُّبِ

محموت في الشرع . منهبي عنه في الكتاب العزيز . وقد وصف اقواما كانوا  
من الحب الكاذب على ما ذكرنا فقال تعالى :

﴿ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ . لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾  
ولو كان هؤلاء يتحجبون حق التحجب لتلطَّف أحدهم في نهي الآخر عن  
سوء فعله . وعاتبه على ما أتى من مُنكر أمره فيكون بذلك قد أعانه . وأخلص  
في الحب له .

( أنت عيني وليس من حق عيني  
غضُّ أجزائها على الأعداء )

وفي الحديث الشريف :

﴿ أَنْصُرْ أَخَاكَ ظَلَمًا أَوْ مَظْلُومًا ﴾

ولما استشكوا أُنصرة الأخ الظالم فسَّرها لهم صلى الله عليه وآله وسلم  
يزجره عن ظلمه . فاذا انتهى وازدجر كنت قد نصرته على نفسه . وأتقدته من  
عاقبة إغوائها له . وقال صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ مَنْ نَصَرَ أَخَاهُ بِظَهْرِ الْغَيْبِ نَصَرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴾

والمعنى أن من رأى شتماً أو ظلماً أو تهمة باطلة أُنصت بصديق له  
وصديقه غائب غير شاعر بالأمر فدافع عنه ، وصان كرامته ، وحفظ له حقه  
كان له ما ذكر من الثواب :

﴿ الْمُؤْمِنُ أَخُو الْمُؤْمِنِ : لَا يَدْعُ نَصِيحَتَهُ عَلَى كُلِّ حَالٍ ﴾

وهناك أقوام رآوا من الورع الاعتزال عن الناس فلا يسمعون سوءاً .  
ولا يرون منكراً . ولكن في عزلتهم حرمان الناس من نصيحتهم ووعظهم  
وإرشادهم . لاسيما إذا كان هؤلاء المعتزلون علماء مسموعي الكلمة . قادرين  
على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . ومن ثمَّ نوه الشارع بشأن الذي يخالط

الناس ويُعاونهم وينفعهم ولو لحِقَّةُ بعض الأذى منهم فقال صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ المؤمنُ الذي يُخالطُ الناسَ ويصبرُ على أذاهم أفضلُ من المؤمنِ الذي لا يُخالطُ الناسَ ولا يصبرُ على أذاهم ﴾

ثم إنَّ الشارعَ نهى عن منازعة الناس وكثرة اللجاج في الخصومة معهم خشيةً أن يؤدي ذلك إلى تسلسل العداوات ، فيسوء العيش ، وتتغص الحياة من ذلك قوله صلى الله عليه وسلم :

﴿ أبعضُ الرجالِ إلى اللهِ الألدُّ الخصم ﴾

( الألدُّ الخصم ) الشديد الخصومة . الصبور على النزاع . الذي يظهر له وجهُ الحقِّ مع خصمه فيتصامَّ عنه . ويُثابر على مناصبته إلى ما شاء الله .

ولم يُفعل الشارعُ أمراً متعلقاً بالحب والبغض جديراً بالعناية والاهتمام ذلك ما أشار إليه بقوله صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ أحِبِّ حَبِيْبَكَ هَوْنًا مَا ، عَسَى أَنْ يَكُونَ بَغِيْضَكَ يَوْمًا مَا . وَأَبْغِضْ بَغِيْضَكَ هَوْنًا مَا ، عَسَى أَنْ يَكُونَ حَبِيْبَكَ يَوْمًا مَا ﴾

( هونًا ما ) أى بتؤددةٍ لا لجأج معها . ورفق لا طيش فيه . والمعنى إذا أحببت إنسانًا فلا تبألغ في حبه والثقة به إلى حدِّ التلق أو أن تُطلِّعهُ على بواطن أسراركَ فربما انقلب عليك عدوًّا . فكان أعرف بطرق مضرَّتكَ . وكذلك إذا أبغضته لسبب صحيح شرعي لا تُبألغ في بغيضه والتشنيع عليه . وهتك أستاره وإذاعة أسرارهِ . فقد يتفق أن يرجع الحالُ بينكما إلى الحسنى والمصافاة فتخجل . وتندم على ما كان فرط منك في حقهِ .

( المزاح ) ومما يساعد على استحكام عُرى التحابِّ بين الإخوان وامتزاج قلوب بعضهم ببعض أن يكون لهم في مجالسهم شيء من اللهو واللعب المعتدلين

بحيث لا يخرجون فيهما عن حدود المطاوعة والمفاخرة والمزاح المحمود ، فقد كان صلى الله عليه وآله وسلم يمزح ولا يقول إلا حقاً . وذكروا من مزاحه أشياء غاية في اللطف والصدق وإدخال المسرة على المخاطبين كالاطفال والنساء والعجائز . من ذلك قوله لغلام مات له طير فحزن عليه :

﴿ يَا أَبَا سَعْمِيْرٍ : مَا فَعَلَ النَّغِيْرُ ؟ ﴾

وقوله أيضاً لتلك المرأة التي شككت إليه شيئاً من أمر زوجها :

﴿ زَوْجُكَ الَّذِي فِي عَيْنَيْهِ بِيَاضٌ ﴾

وإن في المزاح على هذه الصورة تفریحاً للكروب . وتسرية عن القلوب . قال أمير المؤمنين عليّ عليه السلام : « إن هذه القلوب تملُّ كما تملُّ الأبدان فابتغوا لها طرائف الحكم » . والمرء الذي يتكلف العُبوس وفرط الوقار في مجالس الناس ، أو يلتزم الجد في عامة أحواله يمتقونه ويستثقلونه . بل ربما تمجنّبوا مجلسه ، واستحلوا أحياناً غيبته . ومما ورد عن الشارع في الحض على الاتباه لهذا الأمر قوله صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ اَلْهُوَا وَالْعَبُوَا فَاِنِّي اَاْكْرَهُ اَنْ يَّرَى فِي دِيْنِكُمْ غِلْظَةً ﴾

( غلظة ) جفاء وشدة تنغص العيش ، وتجعل الحياة مرّة . ولكن على العاقل أن يتفطن لما يُريده الشارع من اللهو واللعب ويحسن فهمها ، وصورة استعمالها ، فلا يتجاوزها الى ما نهى الله ورسوله عنه : مما فيه ضياع وقت أو مال ، أو مسّ عرض أو كرامة ، أو تجديد عداوة أو قطيعة أو تفریط بحق أو فريضة . وكل ما في الأمر مثلاً أن يُروض الأصدقاء في مجالس لهوهم أبدأهم بالألعاب . أو يُنشدوا أناشيداً لا فحش فيها ولا سباب . أو يتطارحوا من النكات ما يُنعش الهمم ولا يخرج عن الصواب .

وحدود الاعتدال في المزاحَة والمداعبة متعلّمة مشهورة قلّما يجهلها أحد .  
ولكن طريقها عسير ، والوقوف عندها يحتاج الى عقل كبير ، قال سعيد بن  
العاص لابنه « اعتدل في مزاحك ، فان الإفراط فيه يُذهب البهاء ، ويجري  
عليك السفهاء ، كما أنّ التقليل منه يُبعدُ عنك الموانسين . ويوحش منك  
المصاحيين » ورؤي أنّ سيدنا صهيباً رضي الله عنه كان يُعجبه أن يمزح فقال  
له النبي صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ أَتَأْكُلُ التَّمْرَ وَبِكَ رَمَدٌ ؟ ﴾

فأجابه إنّي أمضغ على الناحية الأخرى يا رسول الله فضحك صلى الله عليه  
وآله وسلم حتى بدت نواجذه الشريفة .

وقد يكون المراد باللّهو واللعب في حديث (الهوا والعبو) إباحة إقامة  
المهرجانات والتقاليس<sup>(١)</sup> في أيام المواسم والأعياد والأفراح فيضرب الجوارى  
على الدفوف ، ويلعب الفتيان بالحراب والسيوف . في نظير ذلك مما لا سوء فيه  
ولا أذى . ووردت به السنة والأخبار الصحيحة

## الرحمة والشفقة

واجب الرحمة والشفقة ضربٌ من ضروب (التعاون والتحاب) . يمارسه  
المرء إزاء العجزّة والضعفاء الذين لا يستطيعون حيلةً في درء أذى يلحقهم ،  
أو مكروهم ينزل بهم . وقد أشرنا في بعض الفصول الماضية الى أن  
الانبياء إنما بُعثوا لأجل هداية البشر الى الحق والعدل . ولما كان ضعفاؤهم  
مُعَرَّضِينَ لضیاع حقوقهم . ولحاق الظلم بهم من قِبَل الأقوياء — يُعلن الانبياء

(١) جم تقليس مصدر (قأس) القوم اذا استقبلوا الولاة عند قدومهم بضرِب الدفوف

والغناء وأصناف اللهو

( صلوات الله عليهم ) في جملة ما يعلنون من أركان دعوتهم - أمر العناية بهؤلاء الضعفاء والانتصار لهم ممن يريد ظلمهم بل إنهم فوق ذلك يعدون أنفسهم منهم ولا يأنفون من الانتماء اليهم تطيباً لقلوبهم ، وحماية لهم من صولة الظالمين حتى قال صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ اللَّهُمَّ أُمَّتِي مِسْكِينًا وَأَحْسِرُنِي فِي زُمْرَةِ الْمَسَاكِينِ ﴾  
وهذا الخلق الشريف أغني ( الشفقة والرحمة ) لا وطن له ، ولا حد ينتهي اليه . فالواجب أن يتعدى أثره الى كل مستضعف من الإنسان والحيوان كما علمنا صلى الله عليه وآله وسلم في قوله :

﴿ فِي كُلِّ ذِي كَبِدٍ رَطْبَةٌ أَجْرٌ ﴾

( ورطوبة الكبد ) كناية عن رطوبته بدم الحياة . وليس للإنسان الرحيم أن يفخر بهذا الخلق ( خلق الرحمة والشفقة ) فإن الحيوانات أيضاً تراحم ويؤاسي بعضها بعضاً . وقد روي أن طائفة من علماء الأزهر كانوا يفترون في مساء رمضان على سطح بعض أروقة الجامع فغشهم هراً فكانوا يلتقون اليه من طعامهم المرة بعد المرة وهو في كل مرة يغيب ثم لا يلبث أن يعود فراهم أمره وتبعوه وإذا به يلقي ما يأخذ من الطعام بين يدي سنور كبير أعشى لا بد في بعض الخرب . فوقف الشيوخ حيارى ، ومجدوا الربّ تعالى الذي رحم العالمين بإيجاد عاطفة الرحمة في نفوسهم ولولاها لأصبح الكون خراباً ، ولكانت الحياة فيه عذاباً .

ومظاهر الرحمة بالضعفاء تختلف باختلاف هؤلاء الضعفاء وتنوع أسباب ضعفهم وحاجتهم : فمنهم الخدم والحول الذين يكونون في البيوت يخدمون العائلات لقاء أجر ، فالرحمة هؤلاء ومعاملتهم بالحسنى من أوكد الواجبات بل إن وجوبها مما يتحقق بوجوب رحمة أفراد العائلة بعضهم لبعض . وقد نبه

الشارع الى هذا فقال صلى الله عليه وآله وسلم :  
﴿ مَا خَفَّفْتَ عَنْ خَادِمِكَ فِي عَمَلِهِ فَهُوَ أَجْرٌ لَكَ فِي مَوَازِينِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾  
ورأى صلى الله عليه وآله وسلم أبا مسعود الصحابي رضي الله عنه يضرب  
غلاماً له فقال له :

﴿ اعْلَمْ يَا أَبَا مَسْعُودٍ أَنَّ اللَّهَ أَقْدَرُ عَلَيْكَ مِنْكَ عَلَى هَذَا الْغُلَامِ ﴾  
واغتاضت عائشة رضي الله عنها من خادم لها ثم رجعت الى نفسها فقالت :  
« اللَّهُ دَرُّ التَّقْوَى مَا تَرَكْتُ لَذِي غَيْظٍ شِفَاءً »  
تريد أن التقوى ومخافة الله تحول بين المعتاض وشفاء غيظه من غاظه .  
وورد في المأثور « من خاف الله لم يشف غيظه » ويدخل تحت النصيحة  
النبوية في حق الخدم والأجراء في البيوت - النصيحة بحق الصنّاع والعملة  
المستأجرين لأغراض آخر . بل خصهم صلى الله عليه وآله وسلم في قوله :  
﴿ أَعْطُوا الْأَجِيرَ أَجْرَهُ . قَبْلَ أَنْ يَجُفَّ عَرَقُهُ ﴾

ومسألة ( عمّال المعامل ) والمستأجرين في البيوت التجارية الكبرى من  
أكبر مشاكل العمران الحديث : فإن هذا العمران إن كان حذر الاسترقاق  
الفردية فإنه مهّد الطريق أمام طائفة من أرباب رؤوس الأموال يحشرون الى  
معاملهم الوفا من إخوانهم في الانسانية فينقادون اليهم مسوقين بالحاجة والعوز  
ثم يأخذون في استغلالهم وتسخيرهم في خدمة منافعهم وتوفير ثروتهم لقاء أجور  
يومية زهيدة يمسكون بها رمتهم ورمق عيالهم . فالإسلام الذي جعل الرقيق  
والخادم أخاً او فرداً من أفراد العائلة لا يبخل برحمته وعطفه على ( عمّال ) :  
( المعامل ) ، فهو بالطبع يرشد الى مواساتهم ، وعدم تحميلهم فوق طاقتهم .  
وأن يكون لهم نصيب صالح من كسب أيديهم وثمرات أعمالهم . ولذلك قال :  
أعطوهم اجورهم من دون مظل ولا تسويف .

ومن الضعفاء الذين حضَّ الاسلام على وجوب مواساتهم ومعاملتهم بالحسنى .  
( أسرى الحرب ) وقد جاء في صفة طائفةٍ من الأبرار قوله تعالى :

﴿ وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴾

وليس المراد بذكر الطعام أن يُقتصر من ضروب المواساة على إطعامهم .  
فإن غير الإطعام كالأطعام في الوجوب لكنه خصَّ الطعام لأن سبب نزول الآية كان كذلك ولأنَّ الإطعام أهمُّ ضروب الإحسان . إذ كان به قوام الأبدان كما لا يخفى .

والمراد بالأسير في الآية غيرُ المسلم لأنَّ الأسارى وقت نزول الآية كانوا مشركين . وقال الحسن البصري : كان رسول الله ﷺ يُؤتى بالأسير فيدفعه الى بعض المسلمين ويقول له ( أحسن اليه ) فيبقى عنده اليوم واليومين والثلاثة ، فيؤثره على نفسه . وكفى بهذا منقبة للقرآن ، وشهادة على سمو آداب الاسلام ومن قوله صلى الله عليه وآله وسلم في ذلك :

﴿ استوصوا بالأسارى خيراً ﴾

ومن الضعفاء الذين تجبُّ على المرء الرحمةُ بهم ( الأطفالُ الصغار ) سواء أكانوا أطفاله ، أو اجانبَ عنه . ومن أجل ما ورد في ذلك قوله صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ ليس منا من لم يرحم صغيرنا ويوقر كبيرنا ، ويأمر بالمعروف وينهى (١)

عن المنكر ﴾

أما ماورد بشأن رحمة الفقراء والمستضعفين عامةً فكثير . من ذلك قوله صلى الله عليه وآله وسلم :

(١) هكذا الرواية باثبات حرف الهمزة في ( ينهى ) مع وجود الجازم وهي لغة لبعض العرب .  
وعليها قول الشاعر : ( إذا العجوز غضبت فطأق \* ولا ترضاها ولا تملق )

﴿ لِكُلِّ شَيْءٍ مِفْتَاحٌ وَمِفْتَاحُ الْجَنَّةِ حُبُّ الْمَسْكِينِ وَالْفُقَرَاءِ ﴾

﴿ السَّاعِي عَلَى الْأُرْمَلَةِ وَالْمَسْكِينِ كَالْمَجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾

(والسَّاعِي عليهم) هو الذي يغدو ويروح في قضاء حاجاتهم. وتهيئة ما يلزم

لهم من مسكن وكسوة وطعام

﴿ لَا تَطْعَمُوا الْمَسْكِينِ مِمَّا لَا تَأْكُلُونَ ﴾

أي لا تطعموهم مما تأنفون منه وتتقرزون ، فإنكم بذلك تكونون كأنكم

لم تطعموهم شيئاً. وَوَصَفَ الْقُرْآنُ بَعْضَ الْفَجَّارِ قَالُ:

﴿ إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ، وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ ﴾

لم يذمه على عدم إطعام المساكين بل على كونه لا يحض غيره من الأغنياء

على إطعامهم ، ومدد يد الاسعاف اليهم . وفي هذا النص دلالة على أنه يجب

على أبناء الوطن أن يتداعوا الى العناية بفقراءهم ، وتدارك الأسباب التي تخفف

البؤس عنهم . من مثل تأسيس ملاحى لعجزتهم ، ومستشفيات لمرضاهم ،

وكتاتيب لأطفالهم ، وتخصيص الطعام بالذكر اتفاقي كما مر ، والآن فان الشرع

يحض على إيصال الخير اليهم بمختلف الوسائل ، وإن حض أبناء الوطن بعضهم

بعضاً على ما ذكرنا من ضروب العناية بالفقراء والمساكين - قد يستلزم اقتطاع

أفراد منهم لهذا العمل وتوفيرهم عليه ، ومن هنا تنشأ ( الجمعيات الخيرية )

و ( جمعيات البر والإحسان ) و ( جمعيات التعاون ) . ومن أكبر ما يساعد على

تأليف هذه الجمعيات بين الاقوام المسلمين وجوب الزكاة عليهم فإنها إذا

أخرجت كما أنزلت كان منها رؤوس أموال طائلة تُدير ملاحى ومستشفيات

وكتاتيب ومعامل خاصة بالفقراء وأولادهم ، وإذا أضفنا الى أموال الزكاة

أموال الأوقاف وارتفاع<sup>(١)</sup> عقاراتها مما هو مرصده لأعمال البر والإحسان

(١) ارتفاع العقارات هو ربحها ودخلها وتقول اليوم ايرادها

وضروب الخير واستثمر كل ذلك بحسب أصول فن الاقتصاد الحديث - لا يبعد  
أن يحدث من وراء هذا جميعه انقلاب عظيم في الطوائف الاسلاميه وإصلاح  
كبير في هياكلهم الاجتماعيه :

ومن الأحاديث التي حضَّ الشارع فيها على الرحمةِ حَضًّا عامًّا قوله صلى  
الله عليه وآله وسلم :

﴿ الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ ، إِرْحَمُوا مَنْ فِي الْأَرْضِ يَرْحَمَكُم مِّنْ  
فِي السَّمَاءِ ﴾

﴿ خَابَ عَبْدٌ وَخَسِرَ : لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ تَعَالَى فِي قَلْبِهِ رَحْمَةً لِلْبَشَرِ ﴾

﴿ لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلَّا رَحِيمٌ ﴾

فهذه الأحاديث وأمثال أمثالها معها يتناول الخطابُ فيها كلَّ فردٍ من  
أفراد الناس إزاء كل فردٍ من أفراد الناس ، لا إزاء أبناء دينه وملته خاصة ،  
وهذا أمرٌ معروف من دين الاسلام بالضرورة ، ويروى أن الامام الشعبيّ  
ألقى السلام يوماً على وثى قائلاً ( السلام عليكم ورحمة الله ) فقبل له أتدعوه  
بالرحمة والرحمة استغفار ؟ ! « فأجابهم : أليس في رحمة الله يعيش ؟ » !!  
ظنَّ القومُ أن طلب المسلم الرحمة لغير أبناء دينه لا يجوز لاعتبارات قامت  
في نفوسهم لم يدركها عقلُ الشعبيّ : ذلك الامامُ الكبير ، وإنما أدرك بعقله  
ورأى بعيني رأسه أن البشر كافة مؤمنهم وجاحدهم يتقالبون في صنوفٍ من نعم  
ربهم ، وضروبٍ من رحمة خالقهم ، يُفدِّقُها عليهم كلَّ صباح ومساء ليحملهم  
بذلك على التفكير في عظمته ، ثم الرجوع الى صحيح عبادته ، أو يفعل ذلك  
تعالى لحكم وأسرار هو وحده سبحانه يعلمها ، فما معنى غضب الشعبيّ إذاً عليهم  
بل ماعساهُ يكون مبلغ تأثير تركه طلب الرحمة لهم سوى التدخل في أسرار القدر  
واستبطان البغض لعيال الله الذين أمر بحبهم ، وإرادة الخير لهم

## الرفق بالحيوان

أشرنا في بحث (الرحمة والشفقة) الى أن الحيوان يدخل في عموم من تجب رحمته والرفق به ، لأنه ذو كبدٍ رطبةٍ كما مرَّ في الحديث ، ولأنَّ في القسوة على الحيوان إيلاماً له ، وهو ذو نفس حيةٍ تُحسُّ وتشعر بالألم ، فلم يكن ثمَّ فرق بينه وبين الانسان من هذا القبيل سوى أنَّ الانسان قد يتظلم أو يعتر بنطقه عن شعوره بالألم مستغيثاً مسترحماً فيرثى له مؤذيه ، ويكفُّ عنه ، أما الحيوان الأعجم المسكين فليست له وسيلة تحميه من أذى الانسان ، وتشفع به لديه سوى شعور الانسان نفسه بأنه ارتكب ظلماً ، واكتسب إثماً ، فمن لنا باعاش هذا الشعور الشريف في نفس الانسان المؤذي فيتأدب بأداب الدين . ويشفق على أخيه في الطين .

والحيوان الصائل أو المؤذي يقتلُ دفعاً لأذاه وصورته . أما غيره فلا يجوز التعرّض له بحالٍ بل إنَّ منه ما هو نافع للإنسان كالبوم والحفاش والغراب ، فإنها تتبع الحشرات والديدان في الارض الزراعية فتأكلها . وتقطع أثرها . وبذلك ينجو الزراع من شرِّها . ومع هذا ترى هؤلاء الزراع يتبعونها ضرباً وقتلاً ، ويوسعونها سباً وشتماً ، ويجزونها على صنيعها كما جوزي سنمّار والحيوانات ذات الدرّ والنسل قلماً يؤذيها أربابها ومثلاً بحيوانات الركوب سوى المسخرة في نقل الأثقال . فالويل لها إذا وقعت بيد من لاخلاق لهم من العامة وذوي الغلظة والجفاء ، فإنهم يجورون عليها ، ولا يرهبون الله فيها . فصار من الواجب على رجال الضبط والأمن أن لا يرهبوا الله فيهم . تأديباً لهم وزجراً .

والكلابُ والقططُ وصغارُ الطيرِ معرّضةٌ لصولة الصبيّانِ وُعرامهم (١)

فعلی أولیاءهم أن يمنعهم من ذلك . ويعودوهم الرفق بهذه الدواجن . والعطف علیها . ويشرحوا لهم ما لها من الفوائد فی خدمة الناس . وقد أوصی الشارع صلی الله علیه وآله وسلم بالهرة لكونها تطوف باللیل فی البيوت وحول النائمین . فتقتل الحشرات المؤذية ، وتلتقط الفضلات المنتنة . وقد أصغى (١) يوماً بيده الشریفة الإیناء إلى هرة بيته يسقيها ويروي عطشها . فدلّ بذلك علی أن سورها طاهرٌ وإن كانت تأكل النجاسات أحياناً . وقد نهى صلی الله علیه وآله وسلم عن إيذاء هذه العجاوات وتوعّد علیه فی جملة أحاديث : وأشهر الأحاديث فی وجوب الرفق بالحيوان قوله صلی الله علیه وآله وسلم :

﴿ في كل ذي كبدٍ حرّی أجرٌ ﴾

(وحرّی) مؤنث حرّان أي شديدة العطش . ويروي (رطوبة) كما فی الرواية السابقة . ومن الأحاديث فی ذلك أيضاً قوله صلی الله علیه وآله وسلم :

﴿ من رحم ولو ذبيحة عصفورٍ رحمه الله يوم القيامة ﴾

﴿ اتقوا الله فی البهائم المعجمة : فاركبوها صالحة وكلوها صالحة ﴾

قوله (المعجمة) أي العجاء التي لا تنطق ولا تقدر أن تفصح عما فی نفسها . وقوله : (اركبوها صالحة) أي اعفوها وأريحوها حتى إذا ركبتموها وجدتموها صالحة للركوب . وجديرة أن توصلكم إلى حيث تقصدون ، وقوله (كلوها صالحة) أي أحسنوا خدمتها وتعهدها بالعف والريّ وخصب المراعي فتسمن وتصلح للأكل . وقال أيضاً :

﴿ إذا ركبتم الدواب فاعطوها حقها من المنازل ولا تكفونوا علیها

شياطين ﴾

أي انزلوا عنها وأريحوها فی الطريق المرّة بعد المرّة . ولا تلزموا ظهورها

حَتَّى تُتَعَبُواهَا وَتُنْهَكُوا قُوَّتَهَا فَتَكُونُوا شِيَاطِينَ . وَكُلُّ مُؤَذِّ شَيْطَانٍ .  
 وَأَبْلَغُ مَا جَاءَ فِي الْحُضِّ عَلَى الرَّفْقِ بِهَذِهِ الْبَهَائِمِ ، وَعَرَفَانِ قِيَمَتِهَا ، وَشَكَرَ اللَّهُ  
 عَلَى الْإِنْعَامِ بِهَا : مِنْ بَابِ وَصْفِ مَنَافِعِهَا ، وَتَعْدِيدِ خِدْمَاتِهَا - قَوْلُهُ تَعَالَى فِي  
 كِتَابِهِ الْكَرِيمِ :

﴿ وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ ، فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ . وَلَكُمْ  
 فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ . وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا  
 بِالْغَيْهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرؤُوفٌ رَحِيمٌ . وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ  
 لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ . ﴾

أَمَا إِذَا أَرَدْنَا ذَبْحَ حَيْوَانٍ أَوْ اضْطَرَّرْنَا إِلَىٰ قَتْلِهِ وَدَفَعْنَا أَذَاهُ فَقَدْ عَلَّمَنَا الشَّارِعَ  
 كَيْفَ نَفْعَلُ فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ :

﴿ إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ . فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ .  
 وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذَّبْحَ وَلِيُحَدِّثَ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ وَلِيُرِيحَ ذَبِيحَتَهُ ﴾  
 فَالشَّارِعُ يُكَافِنَا الْإِحْسَانَ وَتَوْحِييَ الْخَيْرِ حَتَّىٰ فِي تَخْفِيفِ الْأَلْمِ عَمَّا نُرِيدُ  
 قَتْلَهُ أَوْ ذَبْحَهُ مِنَ الْحَيْوَانِ

فَالكَلْبُ الْعَقُورُ مِثْلًا يُجْهَزُ عَلَيْهِ بِاللِّهَاضِمَةِ لِأَنَّ مَاضِيَةَ لَا تُعَدُّ بِهِ وَالْحَيْوَانُ الْمَأْكُولُ  
 كَذَلِكَ بَعْدَ أَنْ نَرِيحَهُ وَنَسْقِيَهُ وَنَشْحَدُ السَّكِينِ شَحْدًا مَاضِيًا ، وَلَا نَرِيهِ أَيَّاهَا .  
 وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ :

﴿ لَعْنُ اللَّهِ مَنْ مَثَّلَ بِالْحَيْوَانِ ﴾

وَالْتَمَثِيلُ بِهِ أَنْ تَقْطَعَ أَعْضَاءَهُ عَضْوًا عَضْوًا تَعْدِيًا لَهُ وَتَشْفِيًا مِنْهُ ، أَوْ تَسْلِيًا  
 وَتَفْكَهًا أَحْيَانًا . وَفِي الْحَدِيثِ :

﴿ نَهَى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ عَنِ التَّحْرِيشِ بَيْنَ الْبَهَائِمِ ﴾  
 وَهَذَا كَمَا تَفْعَلُ الْعَامَّةُ فِي التَّحْرِيشِ بَيْنَ الدِّيَكَةِ فَتَوَاتِبُ ، وَالْكَبَاشِ

فتمتدح ، والثيران فتتصارع ، والكلاب فتمهارش ، ثم يسيل دُمها ، وتنهب  
أنفاسها وقد تدركها منيَّتْها . ولا فائدةً للإنسان من وراء ذلك سوى الضحك  
والتسلية ، أو المباهاة الباطلة ، أو جمع مال السُّحت من النظارة (١)  
وجاء في الحديث أيضاً بشأن الرفق بالحيوان :

﴿ نهى صلى الله عليه وآله وسلم عن ذبح ذوات الدرر ﴾  
أي ينبغي ألا يعجل في ذبح اناث المواشي ذوات اللبن استبقاءً لها فيطول  
زمن الانتفاع بدراها ويشبع منها ابنها

## الصدقة والزكاة

قلنا في مقدمة الكتاب : إن الأخلاق بآثارها لا بأخبارها . ولا بد أن  
القاريء انتبه في بحث ( الرحمة والشفقة ) الى أن مجرد تأثر النفس من حالة  
الفقراء والرثاء لهم ، والتحزن عليهم ، لا يفيدهم شيئاً ، ولا يصح أن يسمى  
صاحبه رحيماً أو شفوفاً مادام تأثره وتحزُّنه لم يقترن بمواساة الفعلية لهم ، ثم إن  
ضروب هذه المواساة كثيرة . وأطيبها ثمراً وأحسنها أثراً إعطاؤهم ما ينتفعون  
به من لبوسٍ وغذاء ، وخاصةً الدراهم والنقود التي هي الأداة القريبة في تحصيل  
أنواع اللبوس والغذاء والمرافق الأخرى : كالطيب والدواء ، وغاز التنوير  
وفحم الاستدفاء ، ومن ثمَّ قال فقهاؤنا رضى الله عنهم « الدراهم للفقير أنفع .  
وبحاجاته المختلفة أشفع »

و (الصدقة) كلُّ مال يُعطى للفقير على وجه التقرب الى الله ، وانتظار  
المكافأة منه تعالى وحده عليه ، والمرء مختارٌ شرعاً في إعطاء هذه الصدقة ، أما  
( الزكاة ) فصدقة خاصة فرضها الإسلام فرضاً لا هوادة فيه ، وقد عين قدرها

(١) ( النظارة ) بتشديد الظاء هم الذين نسميهم ( متفرجين )

وزمنها ومصرفها وكيفية صرفها ، ولها أحكام وشرائط مُبَيَّنَةٌ في كُتُبِ الفقه : فالزَّكَاةُ صدقة طائفيّة أي خاصّة بطائفة المسلمين ، أمّا الصَّدَقَةُ المطلقة فعالمية لا تختصُّ ببلدٍ ، وقد شرعها الإسلام للمسلمين في جملة ما شرع لهم من الواجبات الاجتماعية التي تساعدُ على تحسين حالتهم ، وتهدئة نفوس الفقراء من ثوران الحقد عليهم ، والطمع في أموالهم ، فنقلُ الجرائم ، وتوثق الروابط بين أبناء الوطن على اختلاف طبقاتهم وطوائفهم . ومن كلام أمير المؤمنين عليه السلام في هذا المعنى قوله « سَوْسُوا إِيمَانَكُمْ بِالصَّدَقَةِ وَحَصِّنُوا أَمْوَالَكُمْ بِالزَّكَاةِ » ومعنى سَوْسُوهُ احفظوه وحفظوه بما ينميّه ويقوّيه . ويقدر ما أوصى الإسلام الأغنياء بأن يُعْطُوا الفقراء صدقاتهم أوصى هؤلاء الفقراء أيضاً بأن لا يتصدّوا لأخذها ما لم يكونوا في حاجة إليها ، فقال صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ الْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى ﴾

فنبه الفقير في هذا القول إلى وجوب العمل والسعي والاستغناء بالله عن الناس فلا يقف من الأغنياء موقف الاستعطاء والتسوّل ، والإسلام وإن حضّ أتباعه على التعاون في أعمالهم ومصالحهم - لكنّه من جهة ثانية أرشدهم إلى أن يعثّل كلّ منهم في تحصيل حاجاته بنفسه ، ولا يكون كلاًّ على غير ، حتى إذا كان أحدهم على ظهر فرسه وسقط سوّطه من يده فليُنزل إليه ولا يكلف غيره مناوئته إياه . كلُّ هذا غرساً للعزّة فيهم ، وطبعاً لنفوسهم بطابع العمل والاستقلال الشخصي وقد اختلفت حالة الحضارة ونواميس الاجتماع عما كانت عليه في زمن أسلافنا الذين كانوا يتصدّقون على الفقراء بطرائق وأساليب تعارفوا عليها فيما بينهم ، وقد رأى أهل هذا العصر أن يؤلّفوا ( جمعيات خيرية ) تتناول فضول أموال الأغنياء بنظام ، ثم تنفقها على الفقراء بنظام ، فكانت هذه الجمعيات رِعْمَتِ الواسطة بين الفريقين في ملأفة المُشْكل ، وتسديد الحساب . وقد قلّ المتسوّلون

في البلاد التي كَثُرَتْ فيها هذه الجمعيات ، ولم يعودوا ينتشرون في الأزقة والشوارع كما هو شأنهم في البلاد التي لا جمعيات خيرية فيها ، ونتج عن وجود هذه الجمعيات أيضاً أن الفقير القادر على الكسب رأى نفسه مضطراً إلى تحصيل قوته وقوت عياله من طريق سعيه الشخصي مادامت ( الجمعيات الخيرية ) لا تقيّد اسمه في سجل فقرائها العاجزين ، وما دام الأغنياء يعرضون عنه ويحياونه على تلك الجمعيات . وقد صرّح بعض علماء الاجتماع المعاصرين بما يأتي :

« إن التصدق على الفقراء بالدرهم يعوددهم البطالة والكسل ، ويثبطهمهم عن متابعة العمل ، ويؤت في نفوسهم عاطفة الاستقلال الذاتي ، فلا تُعن أحداً منهم بدرهم ، واجعل كل مُروءتك في أن تهني لهم سبباً للمعيشة ليتمكنوا من مساعدة أنفسهم بأنفسهم ، وهذه الفكرة الاجتماعية وإن لم يمكن تطبيقها في بلادنا بجمليتها فإنه يمكننا أن نستفيد منها ونحذو حذوها في بعض طرائقها : فنوجد للفقراء اسباباً للكسب وتحصيل المعيشة ، ونؤلف ( جمعيات خيرية ) تقوم بحسن الوساطة بين الأغنياء والفقراء ، ونلح على الأغنياء بتعريفهم واجبهم الشرعي والاجتماعي في امداد هذه الجمعيات بصدقاتهم ، وفرائض زكواتهم ، كما نغرس في قلوب الدّهاء والفقراء حب العمل وبغض التسوّل ، وأنه غير جائز في الإسلام إلا عند العجز التام ، وقد مرّ في هذا الفصل وبعض الفصول السابقة نصوصٌ شرعية ، تساعد على انفاذ هذه الطرائق الاجتماعية ، وترويح أمرها في بلادنا وبين أقوامنا ، وإن لم نفعّل تزدد البطالة والفقر فينا ، وتشتدّ القسوة في قلوب أغنيائنا ، والبغض والطمع في نفوس فقرائنا ، وبذلك تفسد أحوالنا ، ويختل نظام اجتماعنا ، ونصبح مضغّة في أفواه الطوائف الأخرى المخالطة لنا ، أو النازلة بين أظهرنا . هذا وإن كثرة النصوص الدينية الحامضة على الصدقة تضطرننا إلى الاقتصار منها على بعضها . وأول ما نبه الشارع إليه أن وجوب

الصدقة إنما هو على الغنيّ الموسر فقال صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ خَيْرُ الصَّدَقَةِ مَا كَانَ عَنْ ظَهْرِ غِنًى . وَإِبْدَاءُ بَيْنِ تَعْوَلٍ ﴾

إنما اشترط الشارعُ هذا الشرط لتبقى نفسُ المتصدقِ طَيِّبَةً بما تتصدق به غير تابعةٍ له ، ولا نادمةٍ عليه. أما إذا وثق من نفسه الرضاء والتبريك للفقير بما آثره به على نفسه فتكون صدقته إذ ذاك ذات فضلٍ بل هي لعمرى أفضل من صدقة

الغنيّ بـدليل قوله صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ خَيْرُ النَّاسِ مُؤْمِنٌ فَقِيرٌ يُعْطَى جَهْدَهُ ﴾

وفي مثل هؤلاء المحسنين الأبرار نزل قوله تعالى :

﴿ وَيُؤْتُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾

و (الخصاصة) الفقر والحاجة. ولا يستقلن المرء الصدقة مهما كانت حقيرة

فإنها قد تقع من الفقير موقعها ، قال صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ إِذَا آتَاكُمْ السَّائِلُ فَضَعُوا فِي يَدِهِ وَلَوْ ظَلْفًا مُحْرَقًا ﴾

﴿ اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ : فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَبِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ ﴾

وقال أمير المؤمنين عليّ عليه السلام : «لا تستح من إعطاء القليل فإنَّ الحرمان

أقلُّ منه »

ومما ورد في فضل الصدقة عامةً قوله تعالى :

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ

سُنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِئَةٌ حَبَّةٌ ﴾

( في سبيل الله ) أي فيما يرضي الله تعالى من الأعمالِ وصنوفِ الإحسان .

فقدار الحبة مما أنفق في هذا السبيل ينتجُ عنه من الخير أضعاف أضعافه

الى سبعةائة ضعف . والمرادُ من ذلك الوصف إظهار ما ينتجه التصدق على الفقراء

من ضروب النفع والفائدة العائدة على الأغنياء والمتصدقين. وقال بعض الفضلاء

في تفسير ماورد في الخبر - من أن الصدقة تدفع البلاء « لا جرم أن العناية بالفقراء وتعهدهم بالصدقة وتدارك أسباب معيشتهم وراحتهم يدفع عن الأمة بلاءً اجتماعياً عظيماً متوقعاً من قبل أولئك الفقراء » وتفسيرُ هذا القول مشاهدٌ فيما هو واقع اليوم بين العمّال وأرباب الأموال في العالم المتمدّن ، على أن هناك حديثاً أصرح من ذلك وهو قوله صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ وَيَلُ لِلْأَغْنِيَاءِ مِنَ الْفُقَرَاءِ ﴾

فالشّارع يُحذّر بهذا القول أرباب الأثرة والطمع والحرص على المال - من حقد الصعاليك وتآلبهم عليهم ، ومدّ يدهم بالسوء اليهم ، وقال تعالى :

﴿ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾

﴿ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾

﴿ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴾

ومن الأحاديث الشريفة - في فضل الصدقة والزكاة - قوله صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ : صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ ﴾

قوله ( صدقة جارية ) أى عمل خيريّ ينتفع به الفقراء بعد مماته إلى ما شاء الله . وهذا كبناء مستشفى لمرضى الفقراء ، أو ملجأً لعجزاتهم ، أو مكتباً لصغارهم . وقال صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ إِنَّمَا يَسْتِظِلُّ الْمُؤْمِنُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي ظِلِّ صَدَقَتِهِ ﴾

﴿ الصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الْخَطِيئَةَ كَمَا يُطْفِئُ الْمَاءُ النَّارَ ﴾

﴿ الزَّكَاةُ قَنْطَرَةٌ لِلسَّلَامِ . ﴾

كَانَ الْمَعْنَى أَنَّ بَيْنَ الْمُسْلِمِ وَبَيْنَ الْإِسْلَامِ قَنْطَرَةٌ لَا يَصِلُ إِلَيْهِ حَتَّى يَجْتَازَهَا .  
وهذه القنطرة هي إخراج ما في ذمته من الزكاة وإيصالها إلى أربابها . وفي هذا  
إنذارٌ شديد لتاركي الزكاة . كما أنه يدلُّ على أنَّ مِنْ أَكْبَرِ أَرْكَانِ الْإِسْلَامِ  
ومقاصده العليا تلافى شُرُورِ الْجَمَاعِ الْإِنْسَانِيِّ مِنْ طَرِيقِ التَّوْفِيقِ بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ  
وَالصَّعَالِيكِ فِي تَوْزِيعِ الثَّرْوَةِ عَلَيْهِمْ ضَمَّنَ نِظَامٌ ثَابِتٌ . وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ  
وآله وسلم :

﴿ كُلُّ مَالٍ أُدِّيَتْ زَكَاتُهُ فَلَيْسَ بِكَنْزٍ وَإِنْ كَانَ مَدْفُونًا تَحْتَ الْأَرْضِ .  
وَكُلُّ مَالٍ لَا تُؤَدَّى زَكَاتُهُ فَهُوَ كَنْزٌ وَإِنْ كَانَ ظَاهِرًا ﴾

هذا الحديث يفيد أنَّ الْإِسْلَامَ لَا يُرِيدُ أَنْ يُنْفِقَ أَرْبَابُ الْأَمْوَالِ ثَرَوَاتِهِمْ  
كُلَّهَا فِي سَبِيلِ الصَّدَقَاتِ وَالْمَبْرَاتِ وَإِنَّمَا كُلُّ مَا يَرِيدُهُ مِنْهُمْ أَنْ يُؤَدُّوا حَقَّ  
إِخْوَانِهِمُ الْفُقَرَاءِ فِيهَا ثُمَّ لَمْ يَكُنْ بَعْدَ ذَلِكَ أَنْ يَكْنُزُوا أَوْ يَتَصَرَّفُوا فِي الْإِنْتِفَاعِ بِهَا  
كَيْفَمَا شَاءُوا وَأَحْبَبُوا وَبِذَلِكَ لَا يَكُونُونَ دَاخِلِينَ فِي وَعِيدِ قَوْلِهِ تَعَالَى :

﴿ وَالَّذِينَ يَكْنُزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ  
بِعَذَابِ أَلِيمٍ ﴾

وَمِنْ آدَابِ الصَّدَقَةِ أَنْ يُخْرِجَهَا الْمُتَصَدِّقُ مِنْ طَيِّبِ مَالِهِ : فَلَا يَعْمَدُ إِلَى رَذَلِهِ  
وَحَسْبِيهِ فَيُعْطِيهِ الْفَقِيرَ . وَجَاءَ فِي ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى :

﴿ لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾

أَيَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِنَ الْمَالِ الطَّيِّبِ الَّذِي لَهُ مَنْزِلَةٌ وَمَوْقِعٌ مِنْ نَفْسِكُمْ . وَقَالَ  
تَعَالَى أَيْضًا :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ  
الْأَرْضِ . وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ . وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ

تَغْبِضُوا فِيهِ ﴿

أي لا تنفقوا من المال الخبيث الذي إذا اضطررتم إلى أخذه من غيركم أخذتموه على كره وإغضاء وتسامح . نعم يجوز للمتصدق أن يتصدق بالتأفاه الحقير إذا لم يجد سواه وكان ينفع الفقير بالجملة . كما في الحديث السابق : « رُدُّوْا السَّائِلَ وَلَوْ بِظُلْفٍ مُّحْرَقٍ » . ومن آداب الصدقة أن لا يَمُنَّ المتصدق بها ، ولا يُؤذي الفقير بالتطاول عليه في إسدائها إليه . وفي هذا المعنى قوله تعالى :

﴿ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتَّبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنْثًا وَلَا أذَى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾  
﴿ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أذَى . وَاللَّهُ غَنِيٌّ

حَلِيمٌ ﴿

أي إن الرد على السائل - بما تعرف عليه من لين القول والدعاء له بالمغفرة - أفضل عند الله من صدقة تُعطيها إياها ثم تؤذيه بشيء من ضروب الأذى بعدها . وانظر ما أجمل ختم هذه الآية بقوله « وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ » (غنى) أي عن صدقة هذه صفتها . وفيه إشارة إلى أن الصدقة التي تُدفع إلى الفقير كأنما تُدفع إلى الله جلَّ شأنه . أو المراد بكونه تعالى (غنياً) أن لديه من أبواب الغنى والرزق الشيء الكثير فهو يفتحها لذلك الفقير الذي تصدقت عليه ، ثم خلصت بالأذى إليه . وقوله (حليم) أي عنك أيها المؤذي إذا تبت ولم تعد لمثلها

ومثل المن في إفساد الصدقة أن يراها المتصدق في نفسه عظمة ذات شأن وقيمة . ومن لطيف ما يحكى عن خالد بن صفوان وكان بخيلاً أنه كان يقول :  
« وَاللَّهِ مَا تَطِيبُ نَفْسِي بِإِنْفَاقِ دَرَاهِمٍ إِلَّا دَرَاهِمًا أَقْرَعُ بِهِ بَابَ الْجَنَّةِ ، وَدَرَاهِمًا أَشْتَرِي بِهِ مَوْزًا »

فقوله ( أقرع به أبابَ الجنة ) أي اتصدَّق به وأصل الى الجنة فأقرع بابها للدخول اليها بواسطة ذلك الدرهم. ولا يخفى ما في هذا القول من استعظام شأن درهمه الذي أنفقته ، و نبل منزلته في نفسه

وُحَصِّلُ القولُ أنَّ التصدُّقَ على الفقراء وإيصال ما فرضه الله من الحقوق اليهم من أكبر الواجبات الاجتماعية على الأغنياء المؤسرين . وإذا أراد الله بأممة خيراً جعل المال في أيدي الاخيار من أبنائها الذين يعرفون كيف ينفقونه في مصالحها ويواسون به فقراءها . وما أحسن ما كان يقوله سيّدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه : « اللهم اجعل المال عند خيارنا ، فلعلهم يجدون به على أولى الحاجة منا »

## الامانة والعهد

( الوعدُ ) و ( العهدُ ) متقاربان في المعنى ويُفَرَّقُ بينهما : بأن ( الوعد ) يتعلق غالباً بالمصالح الوقتية ، والأمر الشخصية ، ولا تكون ذات بالٍ . أما ( العهدُ ) فيتعلق بالمصالح العامة والأمر ذات الخطر والشأن التي قد ينتج عن الإخلال بها فسادٌ كبير ، أو شرٌّ مستطير . وفرَّق أيضاً : وهو أن ( العهد ) يقترن به غالباً أيمانٌ مغلظة ، ويُفرَّغ في قيودٍ وشرائط معينة ، تسجَّلُ وتدوَّنُ ويُتوقع عليها المتعاهدون أحياناً . ولا كذلك ( الوعد ) فإنه يُكتفى فيه بالقول والمواطأة . ومن ثمَّ كان أمر العهد أخطر ، ووجوب مراعاته أوكد ، والرجوع عنه أشع وأقبح . حتى خصوا تقضيه باسم ( الخيانة ) و ( الغدر ) كما خصوا المحافظة عليه والقيام به باسم ( الأمانة ) وصاحبها ( أمين ) . و ( الوفاء ) يُطلق على حسن القيام بالعهد والوعد . أما ترك إنجاز الوعد فيسمى ( خُلْفاً ) . ومهما عدَّدوا الواصفون من محامد ( الصدق ) في القول و ( إنجاز الوعد ) وحسناتهما فإن

لذلك قليلٌ بالنسبة الى محامد (الأمانة) كما أن قبح (الكذب) و (خلف الوعد) لاشيء بالنسبة الى قبح ( الخيانة ) وفضاعة أمرها وسوء مغبتها . على أن الحسن والقمح في الجانبين يتوقفان على مبلغ ما ينشأ من حسن الآثار وقبحها . وقد أشرنا آنفاً الى أن اليهود إنما تتوثق بين الناس من أجل الامور الهامة والمصالح العامة ، بخلاف المواعيد . ومن ثمَّ كان ( الوفاء بالعهود ) أعمَّ أثراً وأطيب ثمراً ، كما كان ( الغدر ) فيها أبين ضرراً ، وأبشع خيراً . ومن عرف من الرجال بالغدر ، ونكث العهد ، قلَّت ثقة الناس به وتجنَّبوا مشاركته والارتباط معه في الأعمال المالية والاقتصادية والوطنية ، قتراه بعيداً وإن كان قريباً ، غريباً وإن كان نسيباً . ويالله ما أشأم الخيانة ، وما أشدَّ عيبتها في البشر وأسرعها في إفساد مصالحهم ، وتقطيع روابطهم . ومن ثمَّ جعلها الإسلام منافيةً لخصاله ، وصاحبها غير معدودٍ في أبنائه ، فقال صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ لا إيمان لمن لا أمانة له ، ولا دين لمن لا عهد له ﴾

﴿ إنَّ حسنَ العهد من الإيمان ﴾

﴿ المسلمون عند شروطهم ﴾

﴿ مَنْ غَشَّ فَلَيْسَ مِنَّا : الْمَسْكُورُ وَالْخَدِيعَةُ وَالْخِيَانَةُ فِي النَّارِ ﴾

ولعمري إنَّ الشارع صلى الله عليه وآله وسلم قد أعذرني أقواله هذه الى من اتبعه من المسلمين ، وبرىء من درك التقصير<sup>(١)</sup> ، في الارشاد والتحذير . فليبرءوا هم من درك التقصير في العمل إن كانوا فاعلين . وقد مدَّح القرآن الأبرار فقال في صفحتهم :

﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴾

﴿ وَالْمُؤْتُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا ﴾

(١) الدرك بالتحريك ويسكن بمعنى التبعة وبمعنى المسؤولية كما نقول اليوم

وحضَّ المؤمنين على الوفاء بالعقود فقال تعالى

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ﴾

وقال تعالى في آيةٍ أخرى:

﴿ واحفظوا أيمانكم ﴾

(العقودُ) هي العقودُ يعقدها الناسُ فيما بينهم استيثاقاً لمصالحهم. (والأيمانُ)

ما يحلفون به على حفظ تلك العقود، وقال أيضاً:

﴿ وأوفوا بالعهد: إن العهدَ كان مسئولاً ﴾

ومن ضروب العهد (الوظيفةُ) التي يشغلها المرءُ في خدمةِ حكومةٍ ووطنه

فإنها في المعنى عهدٌ بينه وبين أمته أن يخدمها بصدقٍ وإخلاصٍ: فلا يتوانى

في العمل، ولا يتناول غيرَ ما أحلَّ الله له مما أُوتِيَ عليه. وقد لامَّ صلى الله

عليه وآله وسلم عاملاً أساء في عماله (١) فقال:

﴿ أما بعدُ فما بالُ العاملِ نَسْتَعْمَلُهُ فَيَأْتِينَا فَيَقُولُ هَذَا مِنْ عَمَلِكُمْ (١) ،

وهذا أُهْدِيَ إِلَىَّ ، أَفَلَا قَعَدَ فِي بَيْتِ أَبِيهِ وَأُمِّهِ فَيَنْظُرُ هَلْ يُهْدَى إِلَيْهِ أَمْ لَا؟ ﴾

أراد هذا العامل أن يقول: إنَّ ما أُعْطِيْتُهُ مِنَ الْمَالِ لَمْ يَكُنْ رِشْوَةً وَأَنَا هُوَ

هَدِيَّةٌ ، فَأَجَابَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بِهَذِهِ الْحُجَّةِ الْقَاطِعَةِ

ومن ضروب العهد (الوديعةُ) يُودعك إياها صاحبها وكأنه بذلك قد

توثق بينكما عهدٌ على حفظها ثم ردها في حينها موفرةً، فأصبح من الواجب عليك

الوفاء بهذا العهد، وأن تكون أميناً على الوديعة لا تخونها، ومن هنا سُمِّيت

(الوديعةُ) نفسها (أمانةً). وقد قال صلى الله عليه وآله وسلم في التوصية بهذا

النوع من العهد:

﴿ أَدِّ الْأَمَانَةَ إِلَى مَنْ أَيْتَمَنَكَ ، وَلَا تَخُنْ مِنْ خَانَكَ ﴾

(١) العمالة والعمل هما ما نسميه اليوم مأمورية ووظيفة

وفهم من الحديث أن مودع الوديعة لو كان هو نفسه قد سبق له أن خانك لا ينبغي لك أن تخونه أنت في وديعته ، وإنما عليك أن تعمل بدينك فتفي له ثم تستعين الله عليه ، وهذا نهاية الكمال الانساني في خلق الأمانة ، ووجوب تجنب الخيانة

وعقود شركات التجارة بين التجار والمتعاملين من جملة العهود الواجب الوفاء بها . وورد في ذلك قوله صلى الله عليه وآله وسلم :  
﴿ إن الله يقول : أنا ثالث الشريكين ما لم يخن أحدهما صاحبه ، فإذا خانه خرجت من بينهما ﴾

وهذا تمثيل جميل ، والمعنى ان بركة الله وتوفيقه يكونان مع الشريكين الأمينين : فإذا خان أحدهما صاحبه ارتفعت البركة من تجارتها ، وزايلها التوفيق الآهي . وهذا أمرٌ مشاهد فإن صفة الأمانة في التاجر توطن ثقة إخوانه فيه ، واقبالهم على معاملته فتزداد أرباحه ، وتغزُر ثروته . وبالعكس إذا كان خائناً خرب الذمة فإن مصيره الإفلاس ، والسقوط من عيون الناس ، ومن ثم قال صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ الأمانة غنى ﴾

﴿ الأمانة تجلب الرزق ، والخيانة تجلب الفقر ﴾

ومن ضروب العهد ( الاستشارة ) كأن المستشار في استشارته لك عقد معك عهداً أن تنصح له ، ولا تغشه ، فصار من الواجب عليك الوفاء بعهده . قال صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ من أشار على أخيه بأمر يعلم أن الرشد في غيره - فقد خانه ﴾

﴿ المستشار مؤتمن ، فإذا استشير أحدكم فليشر بما هو صانع لنفسه ﴾

أي ينصح للمستشير بما ينصح لنفسه لو كان هو في محله

ومن ضروب العهد (أحاديثُ الناس) في مجالسهم ، فهم في اجتماعهم كأنهم  
تعاهدوا على أن يؤمن بعضهم بعضا : فيحدث أحدهم إخوانه بما في نفسه  
من دون خوفٍ ولا حذر ، فصار من الواجب على كلِّ منهم الوفاء بالعهد : فلا  
يخون في نقل الحديث وإفشائه . وقد قال صلى الله عليه وآله وسلم في هذا المعنى :  
﴿ إنما يتجالس المتجالسان بأمانة الله : فلا يجل لأحدهما أن يفشي على  
صاحبه ما يخاف ﴾

﴿ إذا حدث الرجلُ بحديثٍ ثم التفت فهي أمانة ﴾

يعنى أن (عهد المجلس) والوفاء به لا يتوقف على عقده بإيجابٍ وقبولٍ  
صريحين ، بل يكفي فيه أقلُّ ما يفيد أنه عهد واجب المراجعة ولو بالثفاته من  
المحدث تشعر بأنه لا يريد أن يسمع حديثه غير المخاطب ، فالواجب إذاً الوفاء  
وعدم الإفشاء . وقال صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ المجلسُ بالأمانة ، الأمانة ثلاثة مجالس : سفكُ ديمٍ حرام ، أو استحلالُ  
عرض حرام ، أو اقتطاعُ مالٍ بغير حق ﴾

يعنى أن (عهد المجلس) إذا تضمن استحلال محرّم لا ينعقد ولا يجب  
الوفاء به مادام هناك عهدٌ آخراً سبق منه وأوكد : وهو ما عاهدنا عليه ديننا  
الاسلامي من أننا معشر المسلمين لا نرتكب كبيرةً من مثل استحلال الدم  
والعرض والمال ، فعلى من حضر هذا المجلس الذي تستحل فيه الاشياء المذكورة  
أن يعمل بالعهد العام النافع ، وما عليه ملام إذا أفشى سرَّ هذا العهد الفاجر  
ومما ورد بشأن الحض على هذا العهد العام قوله تعالى :

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا اللهَ والرسولَ وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون ﴾

ومثله قوله صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ اتقوا الحجرَ الحرامَ في البنيان فإنه أساسُ الخراب ﴾

فسارق الحجر الواضع له في بناء داره خائن للعهد العام الذي توثق بين أبناء الامة بواسطة دينهم من تحريم أموالهم عليهم الأبحاثها ، وإن داراً أسست على خيانة قلماً تدوم أو تسلم من الخراب والدمار .  
ومن أدقّ العهود التي تجب مراعاتها والتي ربما خفي أمرها على الناس (العهد مع العميان) فإن أفراد هذه الطائفة بما لحقهم من هذا المصاب الذي خرجوا به من العالم - وإن كانوا مازالوا فيه - كأنهم عاهدوا اخوانهم وقد رأوا بعينهم مصابهم أن يسلموا عليهم ، ويهدوهم الطريق ويسرعوا اليهم بالمعونة ، ولا يحرموهم التأنيس الذي اعتادوا أن يتبادلوه هم فيما بينهم . فإذا لم يفعلوا ذلك كانوا كأنهم قد خانوهم وأخرجوهم من هيئة اجتماعهم . ولم يفوا لهم بعهدهم . ولعل ما قلناه هو معنى مارواه ابو هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم انه قال :

﴿ ترك السلام على الضير خيانة ﴾

والحاصل أن الأمانة في الامة والمحافظة على العهود الموثقة بين أفرادها هو ملاك كرامتها ، والباعث على توفير الخير والبركة والرزق فيها ، واذا قصرت الامة بواجبها من هذا القبيل ساء حالها ، وكثر النكد فيها ، وتقلص ظل الهناء والخير عنها . وقد قال صلى الله عليه وآله وسلم في هذا المعنى :

﴿ لا تزال أمتي بخير ما لم تر الأمانة مغنماً والصدقة مغرماً ﴾

أى أنها تبقى في خير وسعادة وصلاح حال الى وقت تعتبر فيه الأمانة التي تؤمن عليها غنيمةً حلالاً لها : فتخون صاحبها وتأكلها . كما تعتبر الصدقة الواجب عليها أداؤها للفقير بمثابة غرامةٍ وضريبةٍ تؤخذ منها من دون حقٍ : إذا وصلت الامة الى هذا الوقت الذي يكون فيه شأنها ما ذكر من استحلال الامانات ، ومنع الزكوات ، تبدل الخير فيها الى شر ، واستحال اليسر الى

عُسْر، والمعروف الى نكر . والعياذُ بالله تعالى  
وقد كانت صفة الأمانة وحسن العهد من أخصّ أخلاق نبيّنا محمدٍ صلى  
الله عليه وآله وسلم وقد ظهرت تباشيرها ونخايلها عليه منذ زمن حدائته حتى لقبه  
مشركو مكة بالأمين . وما زالوا كذلك يلقّبونه به حتى بعد بعثته : فقد ثبت  
أنه صلى الله عليه وآله وسلم لما هاجر الى المدينة خفيةً أبقى في مكة ابن عمه  
عليّاً عليه السلام لينوب عنه في ردّ ما كان لديه من الودائع والأمانات الى  
المشركين من أهلها . فهم لم يروا أن يُؤمنوا به ، لكن رأوا أن يأتّمونه على  
كنوزهم . وهذا من مواضع العجب : رجلٌ لا يجرؤ على خيانة الناس أقترأه  
يجرؤ على خيانة ربّ الناس !!!

## الجهر بالحق

ويسمى أحياناً ( الشجاعة الأدبية ) و ( حرية القول ) . أما اسمه بلسان  
الشرع فهو ( الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ) والغرض من هذا الواجب  
الاجتماعي أن يرى المرء باطلاً يُريد أن يظهر في مظهر الحق ، ويقوم مقامه  
فيحمله دينه وشجاعته وكبر نفسه على تأييد الحق ونشله ، وإزهاق الباطل  
وخذله . ويهتف بما علمه القرآن أن يهتف به في مثل هذا الموقف  
﴿ وقل جاء الحق وزهق الباطل . إن الباطل كان زهوقاً ﴾  
ولم تنجح أمة أو تقم دعوة إلا على أساس الجهر بالحق . وإن بقاء كل  
أمة في الوجود متوقف على بقاء هذا الأساس متيناً : فاذا انهارت انهارت الأمة  
على الأثر . ولم يعد يبقى منها إلا الأثر . وهذا ما خشية الشارع على أمته  
مذ قال صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ إذا رأيت أمتي تهابُ الظالم أن تقول له : إنك ظالم ، فقد تودّع منها ﴾

أي إذا وجد في الأمة من يجرؤ على ارتكاب المظالم ولم يوجد فيها من يجرؤ على رَدِّعِهِ فقد تعرّضت الأمة إذ ذاك للضياع ، وحقّ أن يقال لها الوداع الوداع . وإذا بحثنا عن الأسباب التي أدت إلى عظمة أوروبا وقوة شعوبها ، وعلو كلمة دولها ، لم نكد نجدها تعدو ما أمر الإسلام به من وجوب الجهر بالحقّ ( الجهر بالحق ) من مضجعه فأتقدها من ذلك البحر ، وردّها إليها الحكم والأمر . وإن الإسلام ليعتبر شرف الأمم وعلو كعبها في المدنية ومراتب الانسانية على قدر ما لديها من خصلة الجهر بالحق ، ومسارعتها إلى نصرته على الباطل . وآية ذلك هذه الآية الكريمة :

﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ : تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾

فالقرآن لم يشهد لأتباعه بالرجحان والتقدم على غيرهم من الأمم إلا لقيامهم بهذا الواجب . ولم يذكّرهم ويطهرهم الا على هذه الشريعة وقد حضّمهم على أن يتخصّص منهم طائفة للقيام بواجب الجهر بالحق وإحيائه فيما بينهم فقال تعالى :

﴿ وَأَتَّكِنُ مِنْكُمْ أُمَّةً يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾

( أمة ) أي طائفة وجماعة . وقد نهى القرآن أيضاً عن كتمان الحق ،

وإدالة (١) الباطل منه فقال تعالى :

﴿ وَلَا تَلْبَسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ . وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾  
( اللبئسُ ) الخياط والمزج . وعاب أقواماً قصرُوا في القيام بهذا الواجب .

فقال تعالى :

﴿ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾  
ومن قبيل الجهر بالحق ( الشهادة ) فعلى المرء أن يؤدّيها ولو على نفسه  
بدليل قوله تعالى

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ  
أَوْ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ ﴾ :

( شهداء لله ) أي شهدوا بما تعلمون أنه الحق لوجه الله وعملا بطاعته  
ولو رجع ذلك بالضرر عليكم ، أو على أقرب الناس اليكم . وقال صلى الله عليه  
وآله وسلم في هذا المعنى :

﴿ قُلِ الْحَقُّ وَلَوْ عَلَى نَفْسِكَ ﴾

﴿ اقبل الحق ممن جاء به : من صغيرٍ أو كبيرٍ وإن كان بغيضاً بعيداً .  
واردّد الباطل على من جاء به : من صغيرٍ أو كبيرٍ وإن كان حبيباً قريباً ﴾

﴿ قُلِ الْحَقُّ وَلَوْ كَانَ مُرّاً : لَا تَخَفْ فِي اللَّهِ لَوْمَةً لَأْتَمَّ ﴾

ويكثر في النصوص الإسلامية التي تحضُّ على الأعمال الصالحة أن يقال  
فيها ( لله ) و ( في الله ) و ( من أجل الله ) و ( لوجه الله ) ويُراد بذلك أن يقع  
العمل لمحض كونه حقاً تجب نصرته والقيام به امتثالاً لأمر الله ، لا لكونه  
يوصل الى غرضٍ شخصيٍّ أو دنيويٍّ تافهٍ . فقوله ( لا تخف في الله لومة لأتم )

(١) أي جمل الدولة والظهور للباطل بعد أن كان للحق

معناه قل الحق ولا تخف ملام الأئمين وتضييهم ففعلك مادام الجهرُ به واجباً عليك ، وقد أمرك الله به

وكلما كان المتصدّي لنصرة الحق عرضةً للخطر أو الأذى كان صنيعة أفضل ، وثوابه عند الله أجزل . وهذا معنى قوله صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ أَحَبُّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ كَلِمَةٌ حَقٌّ تَقَالُ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ ﴾

والمراد بالسلطان صاحب السلطة ونفوذ الكلمة في أمر الأمة فهذا اذا جار عليها وتمسك بالأباطيل في إدارة شؤونها كان الواجب مقاومتها وردّه الى الحق فيما يأتي ويذر . ولا ريب أن الذي يتصدّى لذلك الجائر يكون عرضة للخطر وكان عمله من أحب الأعمال وأشرفها

وفي مثل هذه الحالة العجز عن الظالم لقوته واستبداده لا يسقط فرض هذا الواجب الاجتماعي ( الجهر بالحق ) عن عقلاء الأمة ، بل هم مكلفون أن يمارسوه في قلوبهم . فيتفكرون في هذا المنكر أو الباطل المستحوذ على الناس ، ويبحثون في أسبابه ونتائجه منتظرين الفرص لدفعه وإزالته . ومن ثم قال صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ ﴾

قوله ( فبقلمه ) أي فليغيّره بقلبه ، ولا معنى لتغييره بالقلب فيما أرى الا ما ذكرت : من التفكير فيه ، والترصد له حتى تنهياً أسباب التخلص منه

والذين يتصدون للجهر بالحق ومقاومة الظالمين والمبطلين يكونون عرضة لسخرية هؤلاء ، وانتقام أولئك ، واذ ذلك يتحاملهم الناس ، ويتجنبون مخالطتهم والجلوس اليهم . خوفاً أن يُتهموا أنهم على رأيهم ، وعلى مثل طريقتهم فيصبحوا في قومهم كأئمتهم غرباء ، وان كانوا في حقيقة الأمر أبناء لهم أو أنساب . وقد عناهم

وأشفق عليهم صلى الله عليه وآله وسلم مُذْ قَالَ :

﴿ طَابَ الْحَقُّ غُرْبَةً ﴾

﴿ طوبى للغرباء : أناس صالحون في أناس سوء : مَنْ يَعْصِيهِمْ أَكْثَرُ مَنْ

يَطِيعُهُمْ ﴾

وقد عاب الشارع فعل من يرى قومه مُعرضين عن الحق ، آخذين في طريق الباطل فيسكت عنهم ، ولا ينصح لهم . أو هو أحياناً يأخذُ إخذهم ويُعينهم على غيبيهم ، فقال صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ مَثَلُ الَّذِي يُعِينُ قَوْمَهُ عَلَى غَيْرِ الْحَقِّ مَثَلُ بَعِيرٍ تَرْدَى وَهُوَ يَجْرُهُ

بذَنَبِهِ ﴾

أي إنَّ شأن من يتمسك بما كان عليه قومه من الأباطيل - وهو يعلم أنها أباطيل - شأن من يتمسك بذَنَبِ بَعِيرٍ قد وقع في حفرة عميقة ، لا جَرَمَ أنَّ البعير اذ ذاك يجرُّه معه الى الهاوية فيهلك . وهذا شأن ذلك المسير لقومه على الأباطيل سوف يهلك معهم ، ولا ينفعه مجردُ علمه بباطلهم

وللحقَّ معنيان : معنى اجتماعيَّ عام ، وهو المتعلق بمصالح الأمة ، ومقومات حياتها الدينية والسياسية والاجتماعية . ففي الدين حقٌّ ويندسُّ فيه أحياناً أباطيل يجب الكشف عنها وإزالة سُومومها . وفي السياسة حقٌّ ويلتبس به أحياناً أباطيل يجب الجهر بها ، والاحتراز من عواقبها . وفي الاجتماع حقٌّ ويسرى اليه أحياناً أباطيل تُفسدُ الاخلاق والعادات والآداب العامة فيجب تتبعها وتنقية المجتمع من شرورها

وجميع ما تقدّم من الآيات والأحاديث إنما هو وارد بشأن هذا الحق العام . فهي تحضُّ على تأييده وتدعو الى مقاومة الذين يخذلونه ، وينصرون الباطل عليه

أما ( المعنى الثاني ) للحق فهو الذي يكون لشخصٍ على آخر فينكره عليه أو يظلمه فيه ، ثم يترافعان الى المحاكم . وهذا النوع من الحق لا يدخل في موضوعنا أعني ( الجهر بالحق ) وربما كان هو المراد بقوله صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ نَعَمَتِ الْمَيْتَةُ أَنْ يَمُوتَ الرَّجُلُ دُونَ حَقِّهِ ﴾

وذلك أن يكون للشخص مثلاً مالاً فيحاول آخر اغتصابه منه ، فيدفعه عنه فيقتله الآخر ، فيموت شهيداً . كما ورد التصريح به في الحديث الآخر وهو قوله صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَظْلِمُ مَظْلَمَةً فَيُقَاتِلُ فِيُقْتَلَ إِلا قُتِلَ شَهِيداً ﴾

ولا بد من اشتراط أن يكون ذلك الحق الذي سلبه وقتل بسببه مما يضره ضياعه أو يفسد عليه أمر معاشه أو كرامته . أما الشيء الحقيقير من حطام الدنيا فلا أظن الشرع يرضى للانسان أن يعرض نفسه للهلاك من أجله و مراد النفوس أحقر من أن تتعادى فيه وأن تتفانى

ويحتمل أن يكون المراد بالحق في قوله : ( نعمت الميتة أن يموت الرجل دون حقه ) الحق العام المتعلقة بالمصالح العامة : فإذا دافع امرؤ عن مثل هذا الحق ومات كان محموداً في ميته ، مخلد الذكر في نفوس أبناء امته . وهذا كشهداء الأوطان الذين يموتون في سبيل الدفاع عنها ، والدؤود عن حقوقها . فتشيد أممهم بذكرهم ، وتنظم الشعراء الأناشيد في الثناء عليهم ، إضراراً لنار حب القدوة بهم .

أما الجهر بالمطالبة بالحقوق الشخصية فهذا أيضاً أمر واجب . والأفان تسامح المرء بحقوقه وصبره على ضياعها المرة بعد المرة قد يلحق به اللأواء ، أو البؤس

والشقاء . ويروى أنه كان لبعض الناس حقٌ لديه صلى الله عليه وآله وسلم فطالبه به بعنف وغلظة ، فامتعض سيدنا عمر وهمم بالرجل ، فقال له صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ دَعَاهُ فَاَنَّ لِصَاحِبِ الْحَقِّ مَقَالًا ﴾

يُرِيدُ أَنَّ الرَّجُلَ مَا دَامَ صَاحِبَ حَقٍّ فَلَهُ كُلُّ الْحَقِّ أَنْ يُطَالِبَ بِهِ ، وَيَجْتَهِدُ فِي اسْتِرْدَادِهِ . وَلَا يَجُوزُ لِأَحَدٍ أَنْ يُلُومَهُ أَوْ يُسَكِّتَهُ . وَهَذَا نِهَآيَةٌ فِي إِنصَافِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ، وَإِنطِبَاعِ نَفْسِهِ الشَّرِيفَةِ عَلَى حُبِّ الْحَقِّ وَنُصْرَةِ الْعَدْلِ .

## العدل والظلم

الظُّلْمُ فِي أَصْلٍ مَعْنَاهُ اللَّغْوِيُّ وَضَعُ الشَّيْءِ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ ، وَتَحْوِيلُهُ عَنْ مَوْضِعِهِ . ثُمَّ غَلَبَ اسْتِعْمَالُهُ فِي أَنْ يَتَعَمَّدَ الشَّخْصُ تَحْوِيلَ حَقِّ لآخر عَنْهُ ، وَإِضَاعَتَهُ عَلَيْهِ ، وَمَنْعَهُ مِنَ التَّمَتُّعِ بِهِ . وَهَذَا يَكُونُ بِأَحَدِ طَرِيقَيْنِ : إِمَّا أَنْ يَتَسَوَّرَ عَلَى مَا يُرِيدُ مِنْ ظُلْمِهِ قَسْرًا . وَهُوَ ظُلْمُ الْجَبَابَرَةِ . أَوْ أَنْ يَتَوَسَّلَ إِلَى ظُلْمِهِ بِاسْمِ الْقَانُونِ أَوْ الشَّرْعِ وَهُوَ ظُلْمُ الْحُكْمِ . وَالظُّلْمُ أَيْضًا يَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ عُمُومِ الْحَقِّ وَخُصُوصِهِ : فَقَدْ يَكُونُ الْحَقُّ عَامًّا رَاجِعًا إِلَى مَجْمُوعِ الْأُمَّةِ وَمَصَالِحِهَا السِّيَاسِيَّةِ وَالْاِقْتِصَادِيَّةِ . فَيُظَلَمُ بِهَا ظَالِمٌ فِي هَذِهِ الْمَصَالِحِ وَالْحَقُوقِ ، وَيَحُولُ بَيْنَهَا وَيَبْنِي التَّمَتُّعَ بِهَا بِأَحَدِ الطَّرِيقِ . وَلَيْسَ هَذَا مِنْ مَوْضُوعِ بَحْثِنَا فِي هَذَا الْفَصْلِ . وَقَدْ يَكُونُ الْحَقُّ خَاصًّا مُتَعَلِّقًا بِالأَشْخَاصِ فَيَتَشَاخُونُ عَلَيْهِ ، وَيُظَلَمُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا فِيهِ ، ثُمَّ يَرْجِعُونَ إِلَى الْحُكْمِ فَيَعْدِلُونَ فِيهِمْ أَوْ يَجُورُونَ . وَهَذَا الْمَعْنَى هُوَ الَّذِي عَقَدْنَا لَهُ هَذَا الْفَصْلَ ، وَنُرِيدُ أَنْ نَسْرِدَ النُّصُوصَ الدِّيْنِيَّةَ الدَّالَّةَ عَلَى تَحْرِيمِهِ ، وَتَقَدَّمَ الشَّارِعَ فِي النَّهْيِ عَنْهُ ، وَالْوَعِيدَ فِيهِ . وَضِدُّ الظُّلْمِ ( الْعَدْلُ ) وَهُوَ التَّوَسُّطُ

والاستقامة وعدم الميل إلى أحد الجانبين  
 إنَّ استحقاق العدل واستقباح الظلم أمران مغروزان في فطرة البشر ، وقد  
 أصبحوا على اختلاف أديانهم وأجناسهم يعتقدون أنَّ العدل أساسُ العمران ،  
 وأنَّ الظلم مؤذِنٌ بخرابه ، مقوِّضٌ لبنيانه . وإنما الصعوبةُ كُلُّ الصعوبة في  
 العمل بهذا الاعتقاد ، والجُرِّي عليه في المحاكم وفي ضروب المعاملات .  
 وإذا أمرَ الإسلام بالعدل ، ونهى عن الظلم فإنما يريد في خطابه كلَّ  
 واحدٍ من الناس لكنه يخصُّ الحكام أحياناً بالذكر لأنَّ الظلم منهم أعمُّ ضرراً  
 وأسوأ أثراً . وأشدُّ تدميراً للبلاد ، وتشتتاً لشمل العباد . قال تعالى :  
 ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ  
 أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ﴾

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ ﴾  
 ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ ﴾  
 و ( القسط ) العدل ، وقوله ( كونوا قوَّامين ) فيه زيادة حضٍّ لهم على بذل  
 الجهد في توخي العدل ، وتبين الطرائق المؤدِّية إليه ، فلا يكون منهم ظلمٌ أبداً .  
 وقال تعالى :

﴿ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾  
 ﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾  
 ﴿ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴾  
 ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ ﴾  
 في هاتين الآيتين تهديد للظالمين بأن انتقام الله سيحلُّ بهم مهما تأخر عنهم  
 وانظر كيف أخبر القرآن في آيةٍ أخرى عن قومٍ حلَّ بهم ذلك الانتقام الآلهي

ثم هنا الأكوان بالخلاص منهم ، فقال تعالى :

﴿ فَتَقَطَّعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾

أي إنهم هلكوا وبادوا فكان على البشر أن يحمّدوا خالقهم على لطفه بهم منذ أراحهم من شرهم .

أما الأحاديث الشريفة الواردة في العدل والظلم فأكثر من أن تحصى ، وحسبك منها قوله صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ اتَّقُوا الظُّلْمَ : فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾

﴿ لَوْ بَغَى جَبَلٌ عَلَى جَبَلٍ لَدُكَّ الْبَاغِي ﴾

﴿ أَحْسِنُوا إِذَا وَلِيْتُمْ ﴾

هذا خطاب للحكام الذين يتولّون الحكم في الناس . يأمرهم بالإحسان وليس الاحسان المنتظر منهم سوى العدل والكف عن الظلم .

﴿ اتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ : فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ ﴾

﴿ اتَّقُوا دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ : فَإِنَّهَا تَصْعَدُ إِلَى السَّمَاءِ كَأَنَّهَا شِرَارَةٌ ﴾

قوله ( كأنها شرارة ) أي في سرعة ارتفاعها صعداً . أو من شدة توقدها المكتسب من توقد قلب صاحبها المظلوم . أو لأنها ستكون ثقاباً توقد به نار العذاب على الظالم .

﴿ دَعْوَةُ الْمَظْلُومِ مُسْتَجَابَةٌ وَإِنْ كَانَ فَاجِرًا فَفَجُورُهُ عَلَى نَفْسِهِ ﴾

المعنى أن لكل من فجور المظلوم ووقوع الظلم عليه حسابة : فهو يُنتَصَفُ له ، كما يُنتَصَفُ منه . ومن كلام أمير المؤمنين علي رضي الله عنه « بئس الزاد إلى المعاد العُدوان على العباد »

ومن آداب الإسلام حماية المظلوم ، والوقوف في وجه الظالم . فهما أحسن

المُسلم من أخيه ظالماً وجوراً في مُعاملة الآخرين وجَبَ عليه أن ينهأ عنه ، ويحذِّره سوءً مغبته ، كما إذا رأى أخاً له يظلمه ظالماً وجَبَ عليه أن يبادر الى دفع الظلم عنه بمختلف الوسائل . وقد لَفَّ الأمرين معاً الحديثُ الشريف . وهو قوله صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ أَنْصِرْ أَخَاكَ ظَالِماً أَوْ مَظْلُوماً ﴾

قيل : كيف أنصره ظالماً يارسول الله ؟ قال :

﴿ تَحْجُزْهُ عَنِ الظُّلْمِ : فَإِنَّ ذَلِكَ نَصْرُهُ ﴾

وينبغي أن نستفيد من هذا الحديث أمراً جديراً بالتدبُّر والانتباه : ذلك أن في إطلاقاتِ النصوص الدينية جُملاً وأساليبَ بليغةً لا يُتفطن لها إلا بعد التأمل فيها ، والرجوع الى النصوص الأخرى التي وردت في موردِها . فلو لم يستشكل السائلُ نصرة الأخ الظالم ويفسِّره له الشارع لا تُتهم الإسلام بأنه يأمر بِحمايةِ الظالم وإعانتِهِ على ظلمه مع أن الأمر ليس كذلك لأن إعانة الظالم لا تجوز بحالٍ . وقد توعد عليها الشارع صلى الله عليه وآله وسلم بقوله :

﴿ مَنْ أَعَانَ ظَالِماً سَلَطَهُ اللهُ عَلَيْهِ ﴾

بل يصحُّ لنا أن نقول : إنَّ الشارع لو لم يُفسِّر لنا معنى نصرة الظالم لوجبَ علينا أن نحمل كلامه عليه : لما تحقَّق لدينا من سلامة أصول الإسلام ، وأطرِّاد مدلولاتها في تأييد الحقِّ والخير والفضيلة وحمل الكفاة على العدل ومكارم الأخلاق . وقد عُلم من قواعد الإسلام الكبرى أنه لا يأمر بالفحشاء ولا المنكر ولا البغي . وإعانة الظالم على ظلمه من أقبح أنواع البغي ، فكيف يأمر الشرع الطاهر به !! فيجب أن يكون المراد من الحديث حجبُ الظالم عن ظلمه كما فسَّره صلى الله عليه وآله وسلم . ثم إنَّ كلمة ( الأخ ) التي وردت في الإرشاد

المحمدي في قوله ( انصر أخاك ) الخ هي ككامة ( القريب ) التي وَرَدَتْ في الإرشاد العيسوي في قول عيسى عليه السلام ( أحب قريبك كمنفسك ) من حيث أن كلاً منهما قد أريد به الأخ في الانسانية او الشريك في الانسانية . لا الأخُ والقريبُ الشريكان في النسب والقراة الرحمة . فمن واجبات المسلم الاجتماعية إذاً أن ينصر المظلوم من أية طائفة كان . ويردع الظالم عن ظلمه من أي قبيل كان

ومن أفتيح أنواع انظلم ظلم المستضعفين من الناس الذين لا يستطيعون حيلة في دفع الظلم عنهم سوى الشكوى الى الله ، والاتكال عليه . وفي هذا المعنى قال صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ اشْتَدَّ غَضَبُ اللَّهِ عَلَى مَنْ ظَلَمَ مَنْ لَمْ يَجِدْ نَاصِرًا غَيْرَ اللَّهِ ﴾

## الحقد والحسد

إنما ذكرنا تطهير النفس من ( الحسد ) في جملة ( الواجبات الاجتماعية ) لأن أثره السيء يتعدى من الشخص الى الجماعة فيؤذيهم ، وينغص عيشهم ، ويورث نيران الفتنة بينهم . فإذا سلم الاجتماع من هذا الخلق الذميمة فقد سلم من شر كبير ، وبلاء عظيم . على أن ما يُلمُّ بشخص الحاسد من ضرر الحسد وشؤمه لا يقل عما يلحق الهيئة الاجتماعية من هذا القبيل . إذ أن الحسد مطيئة الكبد ، ومبراة الجسد . فهو كما يوقع صاحبه في الغم والحزن يُضنى جسده ، ويُفسد صحته ، وربما أهلكه ، وأورده منيته . قال أمير المؤمنين علي عليه السلام ( صححة الجسد من قلة الحسد ) وقال الأصمعي قلت لأعرابي : ما أطول عمرك !! « قال تركت الحسد فبقيت » ولما علم القرآن نبينا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم أن يستعيد من مساوي الأخلاق كان الحسد من جملة ما لقنه

الاستعاذة منه فقال تعالى :

﴿ وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾

و ( الحَسَدُ ) تمتي زوال نعمة الغير : فإذا تمكن هذا التمي المشؤوم من نفس الشخص ، وغفل عنه ، فلم يتطهر منه بقي في نكد ، الى الأبد . لأنَّ نِعَمَ الله على العباد لا تنقطع ، فكمد الحاسد ونكده إذا لا ينقطع وضرر الحسد اللاحق بصاحبه أشد من اضره اللاحق بالمحسود . بل ربما كان المحسود في غفلة عن متاعب الحاسد وهموم نفسه . فهو في راحةٍ والحسود في تعب . وهل يتصور فوق هذا شقاء ؟

( إِنِّي لَأَرْحَمُ حَاسِدِي لِفِرْطِمَا ضَمَّتْ صُدُورُهُمْ مِنَ الْأَوْغَارِ )

( نَظَرُوا صَنِيعَ اللَّهِ فِي فَعْيُونِهِمْ فِي جَنَّةٍ ، وَقَلُوبُهُمْ فِي نَارٍ )

والحسد في الحقيقة خُلِقَ لِثَامِ النَّاسِ : لأنَّ الحسود عادة يدع البعداء عنه فلا يحسدُهم على ما هم فيه من رزق سني ، وعيش هنيء ، ثم يعمدُ الى ذوي رحمة ، أو ذوي مودته وقد تجددت لهم نعمة ، أو حظٌّ من دنيا ، فيحسدُهم ويغى عليهم ، ولا يألو في إيصال الشر اليهم .

وقد حذر الشارع من الحسد ، ونبه الى قبح آثاره . ونصح بوجود تلافيه . وقال : انَّ صاحب الحسد غيرُ عامل بآداب الاسلام . ولا سالك طريقة النبي عليه وعلى وآله الصلاة والسلام . من ذلك قوله :

﴿ لَيْسَ مِنِّي ذُو حَسَدٍ ﴾

﴿ الْغَيْلُ وَالْحَسَدُ يَا كُلَّانَ الْحَسَنَاتِ كَمَا تَأْكُلُ النَّارُ الْحَطَبَ ﴾

( الْغَيْلُ ) الحقد . ومعنى الحديث أن الحسود الجاهل من شأنه أن يتمادى في إتيان أعمال السوء ضدَّ محسوديه . فكلُّ حَسَنَةٍ تصدرُ منه تعقبها سيئة منه أيضاً في حقهم . وكما أن حَسَنَاتِ الْمُحْسِنِينَ تذهب بسيئاتهم كذلك سيئات

الحاسدين تذهب بحسناتهم أيضاً . وقال صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ الْمُؤْمِنُ يَغِيظُ وَالْمُنَافِقُ يَحْسُدُ ﴾

(الغِبْطَةُ) ان تَمَنَّى نعمة مثل نِعَمِ الآخِرِينَ من دون أن تَمَنَّى زوالها عنهم وإلا كانت حَسَدًا . وَتَمَنَّى مثل مال الآخِرِينَ من النعم لا يضرُّ ولا يُمكن التوقّي منه بل إنه قد يؤدي الى (المنافسة) أحياناً . والمنافسة المحمودة لا يكرها الشارع إذ يقترن بها اقتداء بأصحاب النعم ومجاراتهم في سلوك الطرائق المشروعة التي سلكوها حتى استحقوا أن يكونوا موضعاً لتلك النعم . فالمنافسة غبطة لكنّها عاملة ناصبة ، لا لاهية لاعبة . وهذه المنافسة المحمودة إذا اشتدت بين الأفراد والطوائف والأمم دفعتهم إلى الجِد والنشاط ، فتظهر إذ ذاك مواهب الرجال ، وغرائب الأعمال ، وعناية الرب المتعال ، بالأمم والأجيال . قال بعض الفضلاء المعاصرين : إن ظهور (المنافسة) بين طوائف أوروبا المختلفة ديناً وعنصراً كان العامل الأكبر في نهوضهم وبلوغهم هذا المبلغ في العلم والاختراع وسائر مقومات المدينة . فقوله صلى الله عليه وآله وسلم : (المؤمن يغبط) يريد هذا النوع من الغبطة التي يرافقها عمل وسعي . « وأن ليس للأسان إلا ماسعي . وأن سعيه سوف يرى . ثم يجزاه الجزاء الأوفى » ومن أشدّ الأحاديث الشريفة لهجة في التخويف من التحاسد والتباغض

قوله صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ دَبَّ إِلَيْكُمْ دَابُّ الْأُمَمِ قَبْلَكُمْ : الْبَغْضَاءُ وَالْحَسَدُ . هِيَ الْحَالِقَةُ ، حَالِقَةُ الدِّينِ . لِحَالِقَةِ الشَّعْرِ . وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا . أَلَا أَنْتَبَهُوا كَمَا بَأْمُرٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابُّبْتُمْ ؟ أَفَشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ . ﴾

(دَبَّ إِلَيْكُمْ) أي يوشك أن يدبَّ أو أخشى أن يدبَّ . فالكلام وإن كان في صورته إخباراً عن أمرٍ ماضٍ هو في حقيقته تحذير وتخويف . وقوله

( هي الخالقة ) أي المستأصلة التي تذهب بكل خير وسعادة في الأمم . ( حالقة  
الدين ) أي انه ينشأ عن تحاسدكم وتباغضكم تخاذلكم وتقاعدكم عن نصره  
بعضكم بعضاً . فتعطل أحكام الدين ويترك العمل بها . ثم إن الشارع في ختام  
الحديث أرشدنا الى دواءٍ ناجم في تقوية عاطفة الحب في نفوسنا وطرده شيطان  
الحسد منها فقال ( أفشوا السلام بينكم ) والمراد بذلك أن المرء منا إذا حسد  
أخاه وشعر في نفسه بوجده عليه أو غيظه منه فليبادر اليه مسلماً مُصافحاً ، مجاملاً  
مصالحاً . هذا هو السلام الذي يكون دواءً ناجعاً لمرض الحسد والبغضاء ولم يُرد  
الشارع قطُّ مجرد حركة الشفاه بالسلام ، ويبقى القلب منطويّاً على الحقد والسقام .  
وفي معنى هذا الحديث قوله تعالى :

﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ : فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ  
حَمِيمٌ ﴾

( التي هي أحسن ) أي الطريقة والخصلة التي هي أحسن وأفضل من غيرها .  
وهي التعجيل بالسلام والمصالحة التي أشار بها الحديث الشريف . وخير للحاسد  
أن يتوسل الى جعل محسوده صديقاً له فيثني عليه أمام الناس ، ويظهر الابتهاج  
بما أوتي من نعمةٍ وفضل . فإن ذلك من أنجع الأدوية في استئلال السخيمة ،  
وإخماد نار الحسد . بشرط أن لا يتعدى فيه حدود الصدق والاعتدال ، وإلا  
عدّ متملقاً أو منافقاً . وقد أشار الشارع الى دواء آخر ناجع في داء الحسد :  
ذلك قوله صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ إِذَا نَظَرَ أَحَدُكُمْ إِلَى مَنْ فَضَّلَ عَلَيْهِ فِي الْمَالِ وَالْخَلْقِ فَلْيَنْظُرْ إِلَى مَنْ هُوَ  
أَسْفَلَ مِنْهُ ﴾

أي ليفكر الحاسد في أن النعم وخيرات الدنيا انما هي موزعة على الناس  
ضمن نظامٍ محكم من سنن الله تعالى ونواميسه التي هي مظهر تقديره الالهي في

خلقه . والناسُ مختلفون في هذه النعم ، وعلى درجات متفاوتة فيها . فما من صاحب نعمةٍ إلا وبجانبه من هو حائرٌ لأسنى منها أو أخط ، كلٌّ بحسب سعيه وعمله الموافق لتقدير الله في أزله . وليس من العدل أن يُعطي الحاسد كلَّ ما يريد من نعمٍ محسوديه ، ويحرم هؤلاء منها ، وهم قد تعرضوا لنفحاتها . ولا ريب أن من أجال في نفسه هذا المعنى ، وفكر فيه طويلاً خفَّ حسده ، وسكن قلبه

ومن أشبع ضروب الحسد وأشدّها شؤماً على المرء أن يحسد أهله وذوى قرابته . وقد وصف هذا الضرب من الحسد وحذّر منه أبلغ تحذير أبو الهيثماء عبد الله بن حمدان فقال لابنه الحسين ناصر الدولة : إذا رأيت السلطان قد رفع من أهلك رجلاً أو الزمان قد نوّه به ، ورأيتك أن تحسده وتشغل نفسك بعداوتيه . فانك تتعب ولا تصل إلى فائدةٍ ، وتسقط أنت ولا تضره هو . وتغم أنت ولا يتأذى هو . وتغض من نفسك بغضك من رجلٍ صار كبيراً من أهلك : فانه ما ارتفع إلا بالآلة فيه يرفعك بها أو إقبال يدنيك منه . واجهد أن تخدمه وتصافيه الود . ليكون ذلك الفضل الذي فيه فضلاً لك . وذلك الفخر راجعاً إليك . وتتجمل بثنائه عليك ، واطرائه لك . وتصير أحد اعوانه ، فانه أحسن بك من أن تكون من أعوان غيره ممن ليس من أهلك . ويراك الناس عنده وجيهاً فيكرمونك من أجله فان كان له منزلة من السلطان جاز أن تصل إليها باستخلافه إياك عليها ، وانتقاله إلى ما هو أكبر منها . وكذلك ان كانت منزلته من غير السلطان . ولا تقلُ أنا أقعدُ منه في النسب ، وإني خير قرابته ، وانه هو أمس كان وضعياً وكان دوننا . فان الناس بأوقاتهم .

أما (الحقد) فهو نوعٌ من الغضب وقد يُرَّق بينهما : بأن الغضب عارضٌ ووقتيٌّ تظهر آثاره على المُغضب في حركته وصوته وملامحه . أما (الحقد) فهو

غضبٌ مُزْمَنٌ في النفس . لا تظهر آثاره إلا في وقت معين ينتقم فيه الخاقد من المحقود عليه ، ويُنزل الأذى به . فالخقد إذا غضبٌ ساكت صابر ، أو غضب منضغط في أعماق القلب ، إذا انفجر خرب ودمر . وهذا ولا ريب مناف لأخلاق الإسلام بدليل قوله عليه الصلاة والسلام :

﴿ المؤمنُ ليسُ بِمُحْقودٍ ﴾

أي لا ينبغي له ذلك وإنما هو يجتهد فيروّض نفسه على العفو والصفح والإغضاء . و ( الخقد ) يكون سببه أحياناً حسدُ الغير على ما أُوتِيَ من نعمة ورزق وجاه : فيحسدُ ثم يحقدُ ثم يُفسدُ ، وقد يكون سببُ ( الخقد ) مُبادأةُ آخرٍ لك بالشرِّ وحصولُ قبيحٍ منه في حتمك فتغضبُ عليه وتحقدُ ثم تتربصُ به الأيام ، وبعد عناء طويل ، في حمل ذلك الحمل الثقيل ، إما أن تفوتك فرصة الانتقام وتكون أضعتَ عمرَكَ في الهمِّ والكمد وتتبعُ الهفوات والعثرات لخصمك فلا تجدها أو تسنح لك الفرصُ فتنتقم وتشفى غيظك منه ، وبعيدٌ جداً أن يكون خصمك مقصوداً الجناح إلى حدٍّ أن يدعَكَ من شرِّه ولا يعود يفكر في أمرك ، فهو في نوبته أيضاً يحقد عليك ، ويأخذ في تدبير المكائد لك ، وانتظار الفرص للانتقام منك ، وهكذا يقضى المتحاقدون أعمارهم في الخصام ، ومحاولة الانتقام كما كان شأنُ عرب الجزيرة قبل الإسلام ، حتى جاء محمدٌ عليه الصلاة والسلام فعلمهم الخيرَ والفضيلة ومكارم الأخلاق ، وحضهم على العفو والصفح والحلم فقال تعالى في صفة الأبرار :

﴿ وَالكَاطِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ﴾

﴿ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى ﴾

وقال صلى الله عليه وآله وسلم في ترك الخقد والحض على العفو والصفح :

﴿ أَفْضَلُ أَخْلَاقِ أَهْلِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ أَنْ تَصِلَ مَنْ قَطَعَكَ ، وَتَعْطَى

من حَرَمَكَ وتَعَفَوْا عَن ظَلَمِكَ ﴿

وقال أمير المؤمنين علي عليه السلام ( إذا قدرت على عدوك فاجعل العفو عنه  
شكراً للقدره عليه ) . وسُرقت لعبد الله بن مسعود ( رضي الله عنه ) دراهم فجعل  
الناس يَدْعُونَ على من أخذها له . فقال عبد الله لهم : « اللهم إن كانت قد  
حملته على أخذها حاجة فبارك له فيها ، وإن كانت قد حملته على سرقها جرأة  
على الذنب فاجعله آخر ذنوبه » ومثل ذلك في التحمل والحلم قول بعض الحكماء :  
إذا قالوا لك إن فلاناً ثلبك وانتقصك فقل لهم إنه لا يعرف جميع تقاضي وإلا  
لما اقتصر على ما قال

## الغيبة والنهيمة

( الغيبة ) ذِكْرُكَ أَخَاكَ فِي غَيْبَتِهِ بما يكره . وإذا لم يكن فيه شيء مما  
ذكرته به سُمِّيَ قولك ( اقراءً وبهتاناً ) وكان إثمك في ذلك أشدَّ وأعظم من  
الغيبة . وبشاعة ذلك كله ، واستنكار أمره ، ومبلغ ضرره في تأريث نار القتن ،  
وتقطيع روابط الألفة بين الناس - أصبح متعلماً مشهوراً لاجابة الى تطويل  
الكلام فيه . وقد نهى الشارع عن الغيبة وحض على تجنبها فقال صلى الله عليه  
 وآله وسلم :

﴿ أَحَبُّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ حِفْظُ اللِّسَانِ ﴾

﴿ طُوبَى لِمَنْ شَغَلَهُ غَيْبُهُ عَنِ عُيُوبِ النَّاسِ ﴾

﴿ إِذَا وُضِعَ فِي الرَّجْلِ وَأَنْتَ فِي مَلَأَ فُكُنْ لِلرَّجْلِ نَاصِراً وَلِلْقَوْمِ

﴿ زَاجِراً . أَوْ قُمْ عَنْهُمْ ﴾

( وُضِعَ فِي الرَّجْلِ ) أي اغتیب والاسم منه ( الوقعة ) . يَعْلَمُنَا فِي هَذَا

الحديث أن لَانُلْقِي أَنفُسَنَا فِي تِيَّارِ الْغَيْبَةِ مَعَ الَّذِينَ يَغْتَابُونَ النَّاسَ بَلْ لَتَكُنْ فِينَا

شجاعة أديبة تنف معها موقف الحق والعدل والاعتدال فنحسب أن محضر المغتاب  
وندافع عنه ، أو تقوم من المجلس على الأقل . وقال صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ ليردك عن الناس ما تعلم من نفسك ﴾

أي إذا أردت الطعن في الناس ففكر أولاً في نفسك فتجد فيها عيوباً ربما  
كانت أشنع وأسوأ مما تذكر عنهم . وإذا ذلك تنزجر وتكف عن الواقعة فيهم .  
وهذه الطريقة من أنجع أدوية داء الغيبة لمن وفقه الله اليها .

ومن أقبح أنواع الغيبة هجو الناس شعراً . فإن الشعر أسير في الناس ، وأعلق  
بالأذهان ، فيكون ضرره أعم ، والإيذاء فيه أتم . وقد نهى صلى الله عليه وآله  
وسلم عن هذا النوع من الغيبة خاصة فقال :

﴿ أُرْبِي الرِّبَا شَتْمَ الْأَعْرَاضِ ، وَأَشَدُّ الشَّتْمِ الْهَجَاءُ . وَالرَّأْيَةُ أَحَدُ الشَّامِتِينَ ﴾

قوله ( والرأوية ) أي الذي يروي للناس ما يقوله الشاعر في هجو الناس  
فانه يكون شريكاً للشاعر في إثمه ، وكان لكل شاعر من شعراء الجاهلية  
راوية يحفظ شعره وينشره بين الناس . ومن أقبح أنواع الهجو الشعري أن  
يتخطى الشاعر شخص المهجو الى أسرته أو قبيلته أو وطنه . قال صلى الله عليه  
وآله وسلم :

﴿ أعظمُ الناسِ فِرْيَةً شَامِتِينَ يَهْجُو قَبِيلَةَ بِأَسْرِهِا ﴾

ومثل ذلك في الشناعة ان يتخطى الأحياء الى الأموات فيهم ، ويخوض  
في ذكر مساوئهم . وقد نهى الشارع عنه مذ قال صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ اذْكُرُوا مَحَاسِنَ مَوْتَانِكُمْ وَكُفُّوا عَنِ مَسَاوِيِهِمْ ﴾

أما القرآن الكريم فقد نهى عن الغيبة مفرغاً النهي في أبلغ أسلوب ،  
وأشدّه تأثيراً في القلوب ، فقال تعالى :

﴿ وَلَا يَعْتَبِرْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا : أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ

ميتاً فكرهتموه ﴿

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ ،  
وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا  
بِالْأَلْقَابِ ، بِئْسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ ﴾

﴿ وَيَلُكُلُ لِكُلِّ هُمْزَةٍ لَمْزَةً ﴾

و (الهَمْزَة) ، و (اللُّمَزَة) متقاربان في معنى الطعن في الناس والتشهير

بهم ، وقال بعض المتقدمين :

« أدركنا السلف وهم لا يرون العبادة في الصوم ولا في الصلاة (يعنى في  
الاقتصار عليها والاكتفاء بهما) ولكن في الكف عن أعراض الناس » وما  
أحسن ما قاله الشاعر :

لقد صدق الباقر المرتضى / سليل الإمام عليه السلام

بما جاء في بعض أقواله / قبيح الكلام سلاح اللئام

ودخلت امرأة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم تستفتيه في أمر ، فلما

خرجت قالت عائشة رضى الله عنها :

« يارسول الله ما أقصرها » فقال :

﴿ مهلاً إياك والغيبة ﴾

فقالت « يارسول الله ، إنما وصفتها بأمرٍ هو فيها » قال :

﴿ أجلٌ ولولا ذلك لكان قولك بهتاناً ﴾

أي ولكان العتب عليك أشدَّ

وبالجملة فإن الغيبة مما حظره الإسلام. قالوا : إلا لمصلحة شرعية يتوقف

تحققها على ذكر الآخر بعيوبه ، وقبيح أعماله : من ذلك أن يظلمك رجل

فتصف من ظلمه ولو لآلة الامور كي ينصفوك منه . هذا في المصلحة الخاصة ، أما في المصلحة العامة فكأن يكون الرجل مجاهراً بأعمال منكراً ، أو مزاعم باطلة ، ينشأ عنها فساد أو فتنة ، فلك إذ ذاك أن تصف من أعماله وسوء عقاصده ، كي يساعذك الحكام ، أو الرأي العام ، على تدارك امره ، وكف شره . وهذا معنى قوله صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ أَتَرَعُونَ عَن ذِكْرِ الْفَاجِرِ أَنْ تَذْكُرُوهُ ؟ أذْكُرُوهُ يَعْرِفَهُ النَّاسُ ﴾

قوله (أترعون) أي اتصورعون وتخرجون ، فهو مشتق من الورع و(الفاجر) المستهتر في ارتكاب المناكر ، ولكن على العاقل ان يعرف كيف يذكر هذا الفاجر وكيف يتوصل الى كف شره ومنع اذاه عن الناس ، وإلا كان السكوت أسلم ، وانتظار الفرص افضل واحكم

و (النميمة) أخت (الغيبة) الشؤمي وقلمما ذكرت الامتقترنة بها . وحد (النميمة) ان تنقل الى الناس من أقوال شخص أو أحواله أو اخباره ما يسوءه أو يفضحه ، أو يفسد عليه امراً دبره ، أو مصلحة يحاول قضاءها . ولا يخفى ما ينتج عن انتشار هذه الخصلة النميمة في الناس من الفساد والشر وتباغض الأحياء ، وتقاطع المتعاهدين على الصفاء والوفاء ، ومن ثم كانت النميمة منافية للإسلام ، مجانبة لأخلاقه العامة التي حض عليها الشارع عليه الصلاة والسلام من ذلك قوله :

﴿ لَيْسَ مِنِّي ذُو حَسَكٍ وَلَا نَمِيمَةٌ ﴾

﴿ إِنَّ أَبْغَضَكُمْ إِلَى اللَّهِ الْمَشَاوُونَ بِالنَّمِيمَةِ . الْمَفْرَقُونَ بَيْنَ الْإِخْوَانِ

الْمُتَمَسِّسُونَ لِلْبُرَاءِ الْعَثَرَاتِ ﴾

قوله (المتمسسون) الخ أي الذين يبحثون عن هفوات يلصقونها بالبرياء .

الغافلين كي يؤذوهم ويُفسدوا عليهم أمورهم . وعاب القرآن من هذا خلقه  
فقال تعالى :

﴿ هَمَّازٍ مَشَاءٍ بِنَمِيمٍ ﴾

و ( النَّمِيمَةُ ) فيما شاع من معناها لا تتعدى نقل أخبار الناس بعضهم الى بعض  
أما التجسسُ و يُسمى السعاية أيضاً فإنه يُطلق في الغالب على نقل أخبار  
الناس الى ذوي السلطة والحكم الذين يملكون الإيقاع بهم أو مصادرة أموالهم  
أو تعريضهم . وهذا الضربُ من النمامِ أفحش أنواعها ، وأشدّها ضرراً . وقد  
نهى القرآن عنه فقال تعالى :

﴿ وَلَا تَجَسَّسُوا ﴾

ويقال للساعي المتجسس ( قلاع ) لأنه يأتي الرجل المتمكّن عند الأمير فلا  
يزال يقع فيه ويروى للأمير من عيوبه ومساويه . حتى يقلعه ويحلّ محله .  
وإنما كان إثم المتجسس عظيماً لأنه يعتمد الى أناس ابتلوا بزلاتٍ أو هناتٍ  
ارتكبوها واستخفوا بها عن أعين الناس خوفاً من الله أو رهبةً من الحكام  
فلا يزال ذلك المتجسس يدأب ويسعى حتى يقع على خبرهم ، ويهتك السر عن  
مكتوم أمرهم ، ثم ينقل ذلك الى الحكام . وهذا لا يجوز في الاسلام كما سمعت .  
ولأن أسرارهم هذه التي تكون في بيوتهم كسراثرهم التي تكون في صدورهم ،  
والشارع قد نهى عن تتبعهما كليهما . فقال صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ إني لم أؤمر أن أنقب عن قلوب الناس ولا أشق عن بطونهم ﴾

يعنى بذلك سراثرهم ، وبواطن أمورهم . وإنما لوليّ الامر الظاهر من  
الأمر . وقد أمر القرآن أن بعدم تصديق هؤلاء المتجسسين إلا بعد التثبت وشدّة  
الفحص الذي في تركه وإهماله فساد وضياع للمصالح العامة قال تعالى :

﴿ إن جاءكم فاسقٌ بنبأٍ فبَيِّنُوا ﴾

فسمي الجاسوس ( فاسقاً ) وكفى بهذا خزيًا . وكما قلنا في الغيبة إنها تجوز أحيانًا صوتًا للمصالح ودرءًا للمخاطر ولا تعود تسمى غيبةً كذلك يُقال في النيمة والتجسس فإنهما قد يلجأ إليهما أحيانًا ولكن لا يكونان اذ ذاك مُحَرَّمين ولا مسميين باسمي النيمة والتجسس المقوتين : كما إذا عرفت أن زيداً مثلاً يدبر مكيدهً لعمر ويريد بها هلاكه أو فضيخته ، أو ضياع حقه . فلا يكون من العدل السكوتُ عن ذلك وترك تبليغه لولاة الامور . هذا في المصالح الخاصة أما ما يتعلق بالمصالح العامة والأمن العام وفي أوقات الحروب والفتن فولاة الأمور إذ ذاك مضطرون الى استخدام أناس ينقلون اليهم أسرار من يريد بالامة سوءاً ، أو بالوطن شراً . ومثل هؤلاء الخبثين كانوا يُسمون في زمن الخلفاء ( أصحاب الأخبار ) ويسمونهم اليوم ( البوليس السري ) أو ( مأمور استخبارات ) وكان للنبي صلى الله عليه وآله وسلم جماعة يبلغونه أخبار المناققين وما يدبرونه من المكائد للمسلمين ، فيحتاط لهم ، ويفسد عليهم تدبيرهم ومكرهم ولكن إن جاز هذا النوع من التجسس والغيبة فلا يجوز أبداً أن يتولى أمره ويستبد به من كان معرفاً بين الناس بالكذب ، وخبث الطوية ، والميل مع الهوى . بل يجب ان يكون ( صاحب الخبر ) حراً كريماً ذا قلب سليم وإخلاص متين ، فلا يزيغ عن الحق ويرفع لولي الأمر من أخبار الناس وأسرارهم الا ما في إفشائه مصلحة لهم ودفع ضرر عنهم ، ونوك كد القول بأن تعرف أسرار الناس بواسطة ( أصحاب الأخبار ) لا يجوز الا في أوقات خاصة ، وعند قيام قرائن قوية دالة على وجود دسائس ومؤامرات خفية في البلاد يؤدي الإغضاء عنها الى ضياع البلاد أو فساد امرها ، والا فان تتبع الحاكم لعورات الرعية ، وبحثه عن أسرارهم الموهومة يُغير قلوبهم ، ويُغضبهم بأمرهم .

وهذا معنى قوله صلى الله عليه وآله وسلم :

﴿ إِنِّ الْأَمِيرَ إِذَا ابْتَدَى الرِّيَّةَ فِي النَّاسِ أَفْسَدَهُمْ ﴾

وقال بعض العلماء المتأخرين في تفسير قوله تعالى :

﴿ وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ﴾

إِنَّ (النَّفَّاثَاتِ) جمع (نَفَّاثَة) مبالغة في (نَفَّاث) كعلامات جمع (عَلَامَة) مبالغة في (عَلَام) قال : و (النَّفَّاث) أصله الساحر (يَنْفِث) أي ينفخ نفخاً خفيفاً مع شيء من الريق على أدوات سحره ومُحْكِمِ عُقْدِهِ . والمرادُ بهم في الآية النمامون والشقارون<sup>(١)</sup> الذين يعمدون إلى العلائق بين الأصدقاء المتحابين . فلا يزالون يرقونها بكلماتهم الخلابية ، وينفثون عليها من سُمووم وشاياتهم الكذَّابة . حتى يُقَطِّعوها فتصبح الأقارب أجنب والأصدقاء أعداء . والاية المذكورة مما لَقَّنه الوحيُ للنبي صلى الله عليه وآله وسلم ولأُمَّته يَعَلِّمُهُمْ بها كيف يستعينون إلى الله من شرِّ النمامين الذين يُشبهون السحرة في خَفِيِّ عَمَلِهِمْ ، ولطيفِ كَلِمَتِهِمْ . وربما شهد لهذا التفسير ما رواه سيدنا أنس (رضي الله عنه) عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال :

﴿ كَادَتِ النَّيْمَةُ أَنْ تَكُونَ سِحْرًا ﴾

وإيُّمُ الغيبة والنميمة والتجسس ودرجة الحُرمة فيها على مقدار ما ينتج عنها من الشرور والآفات والأضرار بالناس : فمنها ما يكفي فيه مُجَرِّدُ التَّوْبَةِ والاستغفار ، ومنها ما يحتاج فوق ذلك إلى طلب الصفح وإصلاح الفاسد أو تعويض الخسار

(١) الشقار هو المحرَّش بين الناس بقصد إيقاع الفتنة والعداوة بينهم

## النفاق والرياء

النفاق ضدّ ( الجهر بالحق ) و ( الأمانة ) و ( الاخلاص ) . أمّا نسبه الى الكذب فهو أخوه الأفسد ، وصنوه الأكد . اذهما معاً يرميان الى غرض واحد أعني تغيير الحقيقة الثابتة وتحويلها عن صورتها التي خلقها الله عليها . ( قال كاذب ) يُخبر بلسان مقاله عن وقوع أمرٍ ما ولا يكون واقعاً ، و ( المنافق ) يخبر بلسان مقالة تارة و بلسان حاله تارة أخرى عن أمرٍ يزعم أنه منظور عليه وثابت في نفسه ولا يكون ذلك واقعاً أيضاً . فالنفاق أعمّ من الكذب : من جهة أنه يكون أحياناً بغير اللسان ، وأخص منه لأنه لا يكون الا إخباراً عما في القلب والنية . و ( الرياء ) كالنفاق الا أنّ أكثر استعماله فيما كان بلسان الحال لا بلسان المقال : فالمرأي يرى أو يخيل بمعونة سمته وملاحمه وأطواره ودموعه أحياناً أنه على خير في نيته وعمله وسائر تصرفاته وهو على تقيض ذلك .

وللنفاق شبهة بالخيانة . ويفرق بينهما بأن ( الخيانة ) رجوع عن إيفاء عهدٍ عاقدت عليه غيرك ثم يعلم ذلك الغير أنّك نقضت عهده ، فيغضب عليك ثم يستريح . أمّا ( النفاق ) فهو خيانة متكررة متجددة تفسد في الأرض الى ما شاء الله : اذ أنّك في إيهامك الآخرين وإقناعك لهم زوراً وبهتاناً بحسن حالك وطيب سريرتك تكون كأنك قد عاهدتهم على الثقة بك ، والاعتماد عليك . ثم لا تعلنهم نقض العهد فتبقى خائناً لهم الى ما لا نهاية . ويبتقون هم مخدوعين بك زمناً يطول ويقصر بحسب مهارتك وغباوتهم ، وشدة مكرك وحسن طويتهم . أفبعد هذا نعجب اذا رأينا الوحي الآلهي لم يحمل على خلقٍ من مساوي الأخلاق حملته على النفاق ، ولم يتوعّد على منكر كما توعّد عليه

حتى جعلَ دَرَكَهَ أَصْحَابِهِ فِي دَارِ الْعَذَابِ تَحْتَ دَرَكَةِ الْجَاهِدِينَ . مذ قال تعالى :

﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ ﴾

وذلك كله لما للنفاق من قبح الأثر . في إفساد حال البشر . وإن الناس

العائشين في نفاقٍ تراهم في نهارٍ من ظواهرهم ، لكنهم في ليلٍ داسٍ من بواطنهم . تحسبهم أيقاظاً في أحاديثهم ، وإتمامهم رُقودٍ في هممهم ، نيام عن خدمة مصالحهم . وهكذا يقضون أعمارهم في الغفلات والتعلات ، والأمانى الباطلة والمواقفات الكاذبة ، حتى يقضى الله عليهم بأمره ، وينفذ فيهم سنته المطردة في خلقه

أشرنا آنفاً الى أنّ النفاق إيهام الناس أنك على شيء يُرضيهم فيثنون عليك أو يعتقدون معك عهداً من أجل ذلك الشيء ، وتكون أنت في الواقع ونفس الأمر مُبطناً خلافه

و ( النفاق الديني ) أن يستسر المرء غير ما يُظهر من أمر دينه . وشناعة ذلك ظاهرة لا تحتاج الى بيان . أما النفاق الآخر الذي يصح لنا أن نسميه ( النفاق الاجتماعي ) فهو أن يُظهر المرء من نفسه أمام الناس أنه على علمٍ جَمٍّ ، أو أخلاقٍ حسنة ، أو أعمالٍ صالحة ، أو مساعٍ في خدمة وطنه وقومه مبرورة . وإذا كلفوه الاتفاق معهم على أمرٍ جامعٍ من المصالح العامة والمشاريع الخاصة أظهر موافقتهم والارتباط معهم ، وهو ينوي في باطنه مخالفتهم بل معاكستهم أحياناً . وقد يقف مع آخرين غيرهم هذا الموقف الخلاب ، ثم مع آخرين وآخرين فيكون مع الكل وليس هو إلا مع نفسه ، ويبقى كذلك حتى يشتهر أمره ، ويقترن بالمذمة ذكره

و ( النفاق الاجتماعي ) كثير الحصول في الشعوب التي تنحط في تربيتها الدينية والاجتماعية ، وصاحبه وإن لم يُعتبر خارجاً عن الملة بالمرّة ولم يكن في

الدركِ الأسفل من النار لكن له من دَرَ كآتها وعذابها على قدر الآثار  
السيئة التي تنشأ عن نفاقه ، والمضرات التي تلحق الناس من خديعته وخلايقه  
وقد وصف القرآن الكريم أرباب النفاق فقال تعالى :

﴿ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ﴾

ومن الآيات التي تكاد تكون صريحةً في وصف النفاق الاجتماعي

قوله تعالى :

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى  
مَا فِي قَلْبِهِ ، وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ . وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا ،  
وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ . وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ ﴾

نزلت هذه الآية في منافقٍ خاصٍّ ، وقيل في المنافقين عامةً . وقال محمد  
ابن كعب القرظي وهو من كبار التابعين : إن الآية تنزل في الرجل ثم تكون  
عامةً بعدُ . وقد طبقَ هذه الآية بعضُ علماء السلف على ما وردَ في كتب  
القدماء وهو : « إنَّ لله عباداً : أَسْتَنْتَهُمْ أَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ ، وَقُلُوبُهُمْ أَمْرٌ مِنَ  
الصَّبْرِ . لَبَسُوا لِلنَّاسِ جُلُودَ الضَّأْنِ مِنَ اللَّيْنِ ، لِيَجْرُوا الدُّنْيَا بِالدِّينِ » وعلى هذا  
فإن الآية تشمل في عمومها أولئك الذين يتظاهرون في مجالسهم مع الناس بحبهم  
لعمران بلادهم ، ورجبتهم في إصلاح شؤون الحياة السياسية والاجتماعية فيها ،  
ويؤكِّدون أقوالهم بأغلاظ الإيمان ، ويكونون هم في الباطن مُبغضين لكلِّ  
إصلاحٍ اجتماعي ، معاكسين لكل مشروع خيري أو عمري . بدليل أنهم  
إذا قاموا من مجالسهم إلى ممارسة أعمالهم كانت مساعيهم منصرفة إلى تخريب  
البلاد ، والتجوية على العباد . والله تعالى لا يحبُّ من كان هذا دأبه من أهل  
النفاق والفساد

أما الأحاديث الواردة في ذمِّ النفاق والمنافقين والكشف عن مساوئهم .

ووصف علاماتهم ، فكثيرة . منها قوله صلى الله عليه وآله وسلم :  
﴿ مَنْ أَرَى النَّاسَ فَوْقَ مَا عِنْدَهُ مِنَ الْخَشْيَةِ فَهُوَ مُنَافِقٌ ﴾ .  
المراد بالخشية الخوف من الله ، والتورع عن المحارم : يتظاهر بذلك  
تظاهراً . وقال صلى الله عليه وآله وسلم :  
﴿ أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ يُرِي النَّاسَ أَنْ فِيهِ خَيْرًا وَلَا  
خَيْرَ فِيهِ ﴾

﴿ إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ الْجَنَّةَ عَلَى كُلِّ مُرَاءٍ ﴾  
﴿ أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي زَلَّةَ الْعَالِمِ ، وَجِدَالَ الْمُنَافِقِ ﴾  
وقد غلا بعض الشعراء فجعل أناس زمانه كلهم منافقين مذ قال :  
( جميعُ الناسِ خدًا عِجُّ إلى جانبِ خدِّاعِ )  
( يعيئون مع الذئبِ ويبيكون مع الراعي )  
ولما كانت خصلة النفاق من شرِّ الخصال وأسوأها أثراً نرى أهل الفضل  
والنبل يتأبَّئونها ويأنفون من الوقوف مواقفها . وقد نرى بعض المتورطين  
فيها يعتذرون أحياناً بأنهم إنما قالوا ما قالوا تقيَّةً وتخلصاً من أذى يُصيبهم من  
ذوى الحكم والسُّلطان . والحق أن للتقيَّة مواطن خاصة ، وقرائن راهنة . قد  
تشفع لبعض الناس فيما يقولون ، لكنها قليلة جداً ربمَّا لا تعرض للمرء في عمره  
سوى المرَّة أو المرَّتين ، مع أن هؤلاء المنافقين ينافقون في مجالس العشاء مراراً  
وتكراراً . ولا نرى للظلم ولا للإكراه قرائن وآثاراً . على أن مدعى التقيَّة كان  
يسعهُ السكوت أو التورية في الجواب فإن ذلك كلف في ارضاء الظالم وصدِّه  
عن الأذى .

ومما ينبغي التنبيهُ إليه ، والتحذيرُ من غوائله من ضروب النفاق والرياء  
نفاق أولئك الذين يتصدون لتربية الأحداث وتهذيبهم ، ووعظ أبناء الأمة .

وإرشادهم : فإن الرِّياء والتصنع من هولاء ومخالفة أعمالهم لأقوالهم تُفسد قلوب  
الموعوظين وتحمّلهم على الاستخفاف بأوامر الدين ومجرّتهم على ارتكاب الآثام ،  
واستحلال الحرام . وإنّ الوعظ لا يُثمر ثمرة الطيب ما لم يقترن به عمل الواعظ .  
والتزامه بنفسه ما وعظ غيره به وحضه عليه . فليحذر المرثي المؤدّب هذا الأمر  
من نفسه . ولا يفعل فعل ذلك الواعظ الذي سرّق اللجاجة ثم قام يخطب في  
الشعب ويحضهم على ممارسة الخير والفضيلة والعفة عما في جيوب الناس وإذا  
باللجاجة تفرق في جيبه ، وترفع عقيرتها بالإشهاد على ذنبه . فهل يكون لوعظ هذا  
الواعظ قيمة أو تأثير في النفوس ، ولا يحسن المعلم أو المرثي أن الطفل الصغير لا ينتبه  
إلى ما كان من خِلافة معلّمه أو مرثيه وريائه ومخالفة باطنه لظاهره . فإنّ في  
هولاء الصغار من الحسّ وقوّة الشعور ما يُساعدهم على إدراك ذلك والانتباه  
إليه بسرعة . ومن مارس شؤون التربية وراقب أخلاق الأطفال وقواهم النفسية  
المختلفة وافق على ما قلنا

